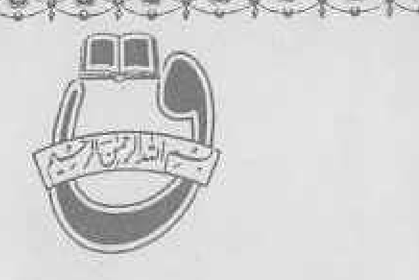

تعليم المتعلم طريق التعلم
تأليف
الإمام برهان الإسلام الزرنوجي
تلميذ صاحب الهداية
عبد العزيز صقر شاهين
قدیمی کتب خانہ
مقابل آرام باغ کراچی



تعليم المتعلم طريق التعلم

تأليف

الإمام برهان الإسلام «الزرنوجي»

تلميذ صاحب الهداية

عني بشرحه وضبط ألفاظه

عبد العزيز صقر شاهين

أحد علماء ومدرسي الأزهر الشريف

الناشر



مقابل آرام باغ کراچی ۱

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فضل بنى آدم بالعلم والعمل على جميع العالم، والصلاة والسلام على محمد سيد العرب والعجم، وعلى آله وأصحابه ينابيع العلوم والحكم (وبعد) فلما رأيت كثيراً من طلاب العلم فى زماننا يجدون إلى العلم ولا يصلون، ومن منافعه وثمراته يحرمون، لما أنهم أخطئوا طرائقه وتركوا شرائطه، وكل من أخطأ الطريق ضل، فلا ينال المقصود، قل أو جل، أردت وأحببت أن أبين لهم طريق التعليم، على ما رأيت فى الكتب وسمعت من أساتيذى أولى العلم والحكم، رجاء الدعاء لى من الراغبين فيه المخلصين، بالفوز والخلاص فى يوم الدين، بعد ما استخرت الله تعالى فيه، وسميته « تعليم المتعلم طريق التعلم » وجعلته فصولا :

﴿فصل﴾ فى ماهية العلم والفقه وفضله ﴿فصل﴾ فى النية فى حال التعلم

﴿فصل﴾ فى اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات

﴿فصل﴾ فى تعظيم العلم وأهله ﴿فصل﴾ فى الجد والمواظبة والهمة

﴿فصل﴾ فى بداية السبق وترتيبه وقدره ﴿فصل﴾ فى التوكل

﴿فصل﴾ فى وقت التحصيل ﴿فصل﴾ فى الشفقة والنصيحة

﴿فصل﴾ فى الاستفادة ﴿فصل﴾ فى الورع حال التعلم

﴿فصل﴾ فيما يورث الحفظ وفيما يورث النسيان ﴿فصل﴾ فيما يجلب الرزق وما يمنعه، وما يزيد فى العمر وما ينقص. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

فصل فى ماهية العلم والفقه وفضله

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »

اعلم أنه لا يفترض على كل مسلم طلب كل علم وإنما يفترض عليه طلب علم الحال (١)

---

(١) علم الحال : يريد به الأحوال والشؤون التى لا بد أن تعرض للإنسان فى حياته

فَإِنَّهُ يُقَالُ: أَفْضَلُ الْعِلْمِ عِلْمُ الْحَالِ، وَأَفْضَلُ الْعَمَلِ حِفْظُ الْحَالِ، وَيُفْتَرَضُ عَلَى الْمُسْلِمِ طَلَبُ مَا يَقَعُ لَهُ فِي حَالِهِ، فِي أَيِّ حَالٍ كَانَ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الصَّلَاةِ فَيُفْتَرَضُ عَلَيْهِ عِلْمُ مَا يَقَعُ لَهُ فِي صَلَاتِهِ بِقَدْرِ مَا يُؤَدِّي بِهِ فَرْضَ الصَّلَاةِ وَيَجِبُ عَلَيْهِ بِقَدْرِ مَا يُؤَدِّي بِهِ الْوَاجِبُ، لِأَنَّ مَا يُتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى إِقَامَةِ الْفَرْضِ

كالإيمان ومعرفة أحكام العبادات والمعاملات الضرورية وطرائق السعى إلى الرزق والعمل لاكتساب مايحفظ الرمق، فلأجل أن يكون مؤمنا يجب أن يتعلم مايصل به إلى الإيمان من علم أصول الدين، ولأجل أن يعرف مافرضه الله عليه من واجبات، يجب أن ينظر فى علم الفقه ليعرف حدود ذلك ولأجل أن يتعرف سبل السعى إلى الرزق والحصول على المعاش يجب أن يتعلم من علوم الحياة مايستطيع تعلمه.

فالغرض الذى يرمى إليه الدين الإسلامى هو الوصول بالإنسان إلى السعادة فى الدنيا والآخرة.

قال الله عز وجل: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون» سورة الجمعة: آية (١٠)

وجاء فيما رواه البيهقى من الحديث الشريف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «تعلموا من أنسابكم ماتصلون به أرحامكم ثم انتهوا، وتعلموا من العربية ماتعربون به كتاب الله ثم انتهوا، وتعلموا من النجوم ماتهتدون به فى ظلمات البر والبحر ثم انتهوا».

يَكُونُ فَرْضًا، وَمَا يُتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى إِقَامَةِ الْوَاجِبِ يَكُونُ وَاجِبًا. وَكَذَلِكَ فِي الصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ، إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ، وَالْحَجِّ إِنْ وَجَبَ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ فِي الْبُيُوعِ إِنْ كَانَ يَتَّجِرُ

قِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: أَلَا تُصَنِّفُ كِتَابًا فِي الزُّهْدِ؟

قَالَ: صَنَّفْتُ كِتَابًا فِي الْبُيُوعِ! يَعْنِي الزَّاهِدُ هُوَ مَنْ يَتَحَرَّزُ عَنِ الشُّبُهَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ فِي التِّجَارَاتِ، وَكَذَلِكَ فِي سَائِرِ الْمُعَامَلَاتِ وَالْحِرَفِ. وَكُلُّ مَنِ اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ مِنْهَا يُفْتَرَضُ عَلَيْهِ عِلْمُ التَّحَرُّزِ عَنِ الْحَرَامِ فِيهِ. وَكَذَلِكَ يُفْتَرَضُ عَلَيْهِ عِلْمُ أَحْوَالِ الْقَلْبِ: مِنَ التَّوَكُّلِ، وَالْإِنَابَةِ، وَالْخَشْيَةِ، وَالرِّضَا، فَإِنَّهُ وَاقِعٌ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

وَشَرَفُ الْعِلْمِ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ؛ إِذْ هُوَ الْمُخْتَصُّ بِالْإِنْسَانِيَّةِ لِأَنَّ جَمِيعَ الْخِصَالِ سِوَى الْعِلْمِ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْإِنْسَانُ وَسَائِرُ الْحَيَوَانَاتِ كَالشَّجَاعَةِ وَالْجَرَاءَةِ، وَالْقُوَّةِ، وَالْجُودِ، وَالشَّفَقَةِ وَغَيْرِهَا سِوَى الْعِلْمِ؛ وَبِهِ أَظْهَرَ اللَّهُ تَعَالَى فَضْلَ

---

(١) محمد بن الحسن: يصله بأبى حنيفة صلة قرابة وهو من تلاميذ أبى يوسف

آدم عليه السلام على الملائكة؛ وأمرهم بالسجود له (١) وإنما شرف العلم لكونه وسيلة إلى التقوى التي يستحق بها المرء الكرامة عند الله تعالى والسعادة الأبدية؛ كما قيل لمحمد بن الحسن بن عبد الله رحمة الله عليه:

تعلّم فإنّ العلم زينٌ لأهله ... وفضلٌ وعنوانٌ لكل المحامد (٢)
وكن مستفيدا كل يوم زيادة ... من العلم واسبح في بحور الفوائد (٣)
تفقه فإن الفقه أفضل قائد ... إلى البر والتقوى وأعدل قاصد (٤)
هو العلم الهادي إلى سنن الهدى ... هو الحصن ينجي من جميع الشدائد (٥)

(١) حيث قال عز وجل: «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين» سورة البقرة آية (٣١)
وأمرهم بالسجود له في قوله تعالى: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس» سورة البقرة آية (٣٤). والسجود معناه الخضوع

(٢) المحامد جمع محمدة بفتح الميمين مصدر ميمي بمعنى المحمودة: يعني أن العلم دليل على أن صاحبه ذو فضل عظيم وأخلاق كريمة وخصال محمودة

(٣) أي في الفوائد التي كالبحور كثرة وعظما وفيه إشارة إلى قوله تعالى: «وقل رب زدني علما» سورة طه، آية (١١٤)

(٤) قاصد: عادل   (٥) السنن بفتح السين: الطريق

فإنّ فقيها واحدا متورعا ... أشد على الشيطان من ألف عابد (١)

وكذلك في سائر الأخلاق نحو الجود والبخل والجبن والجراءة والتكبر والتواضع والعفة والإسراف والتقتير وغيرها، فإن الكبر والبخل والجبن والإسراف حرام؛ ولا يمكن التحرز عنها إلا بعلمها وعلم ما يضادها، فيفترض على كل إنسان علمها. وقد صنف السيد الإمام الأجل الشهيد ناصر الدين أبو القاسم كتابا في الأخلاق، ونعم ما صنف، فيجب على كل مسلم حفظها.

وأما حفظ ما يقع في بعض الأحايين ففرض على سبيل الكفاية، إذا قام به البعض في البلدة سقط عن الباقين فإن لم يكن في البلدة من يقوم

(١) ليس المراد بالألف تحديد العدد، بل بيان الكثرة. وإنما كان الفقيه المتورع الواحد أشد على الشيطان من كثير من العابدين غير الفقهاء لأن الفقيه على بينة من الحلال والحرام فلا يستطيع الشيطان أن يضله، أما العابد غير الفقيه فهو يعبد الله على غير بصيرة، فمن الهين على الشيطان أن يورطه في الضلال دون أن يشعر، ومن السهل أن يوقعه في حبائل متشابكة من الشبه والشكوك.

بِهِ اشْتَرَكُوا جَمِيعًا فِى الْمَآثِمِ(١) فَيَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِذَلِكَ وَيُجْبِرَ أَهْلَ الْبَلْدَةِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ عِلْمَ مَا يَقَعُ عَلَى نَفْسِهِ فِى جَمِيعِ الْأَحْوَالِ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الطَّعَامِ لَابُدَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ(٢) مِنْهُ ، وَعِلْمَ مَا يَقَعُ فِى بَعْضِ الْأَحَايِينِ بِمَنْزِلَةِ الدَّوَاءِ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ حِينَ الْمَرَضِ فَقَطْ . وَعِلْمُ النُّجُومِ(٣) بِمَنْزِلَةِ

---

(١) المآثم : الإثم والمعصية . وإنما اعتبر الجميع مشتركين فى الإثم والمعصية بترك مايحتاج إليه الفرد فى بعض الأحيان لأنه مصلحة عامة ، فاذا انقطعت حاجة الفرد إليها فى بعض الأحيان ، فحاجة المجموع إليها دائمة لاتنقطع .

(٢) يتلخص معنى هذه العبارة فى أن من العلوم ماهو ضرورى للمرء لايستطيع أن يؤدى واجباته الدينية والدنيوية إلابه ، كما لايستطيع أن يعيش بدون طعام يقيم به أوده ويسد رمقه . فتعلم مثل هذه العلوم واجب شرعا على كل فرد بعينه ، ومنها ماقد يحتاج إليه فى بعض الأحيان ، كما يحتاج الانسان إلى الدواء حين المرض ، فتعلم مثل هذه العلوم لايجب على كل فرد بعينه ، ولكن يجب أن يكون فى كل جماعة عدد من العارفين بها يكفى لسد حاجة هذه الجماعة إليها ، فمثلا لايجب على كل فرد أن يكون طبيبا ، ولكن يجب أن يكون فى كل جماعة عدد من الأطباء يكفى لعلاج من يمرض منهم .

(٣) يظهر أن المؤلف لايقصد بعلم النجوم علم الفلك بدليل قوله : « والهرب من قضاء الله غير ممكن ... » فإن علم الفلك لايبحث فى وسائل الهرب من قضاء الله ، وإنما هو علم يبحث فى عالم الكواكب والأفلاك ، ونظام سيرها ، وقواعد

الْمَرَضِ فَتَعَلُّمُهُ حَرَامٌ لِأَنَّهُ يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ ، وَالْهَرَبُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ غَيْرُ مُمْكِنٍ ، فَيَنْبَغِى لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَشْتَغِلَ فِى جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالصَّدَقَاتِ الدَّافِعَةِ لِلْبَلَاءِ ، وَيَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِيَصُونَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْبَلَاءِ وَالْآفَاتِ ، فَإِنَّ مَنْ رُزِقَ الدُّعَاءَ ، لَمْ يُحْرَمِ الْإِجَابَةَ ، فَإِنْ كَانَ الْبَلَاءُ مُقَدَّرًا يُصِيبُهُ لَامَحَالَةَ ، لَكِنْ يُيَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَيَرْزُقُهُ الصَّبْرَ بِبَرَكَةِ الدُّعَاءِ

اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا تَعَلَّمَ مِنَ النُّجُومِ قَدْرَ مَا يَعْرِفُ بِهِ الْقِبْلَةَ وَأَوْقَاتَ الصَّلَاةِ فَيَجُوزُ ذَلِكَ

الجاذبية بينها ، وأوقات شروقها وغروبها . . وغير ذلك مما يحتاج إليه أشد الاحتياج فى كثير من الشئون الدينية والدنيوية ، ومن يطلع على أبحاث الفلكيين الدقيقة لا يسعه إلا أن يخر ساجدا لخالق هذا العالم الذى يبهر العقول ويدهش الألباب قال الله تعالى : « إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » سورة آل عمران ، آية (١٩٠)

وقال صلى الله عليه وسلم : (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا وتعلموا من العربية ماتعربون به كتاب الله ثم انتهوا ، وتعلموا من النجوم ماتهتدون به فى ظلمات البر والبحر ثم انتهوا) .

وَأَمَّا تَعَلُّمُ عِلْمِ الطِّبِّ فَيَجُوزُ لِأَنَّهُ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَيَجُوزُ تَعَلُّمُهُ كَسَائِرِ الْأَسْبَابِ، وَقَدْ تَدَاوَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَقَدْ حُكِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمُ الْفِقْهِ لِلْأَدْيَانِ وَعِلْمُ الطِّبِّ لِلْأَبْدَانِ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ بُلْغَةُ مَجْلِسٍ (١)

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْعِلْمِ فَهُوَ صِفَةٌ يَتَجَلَّى بِهَا لِمَنْ قَامَتْ هِيَ بِهِ الْمَذْكُورُ (٢) كَمَا هُوَ. وَالْفِقْهُ: مَعْرِفَةُ دَقَائِقِ الْعِلْمِ مَعَ نَوْعِ (٣) عِلَاجٍ. قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: الْفِقْهُ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ مَا لَهَا وَمَا عَلَيْهَا. وَقَالَ: مَا الْعِلْمُ إِلَّا الْعَمَلُ بِهِ وَالْعَمَلُ بِهِ تَرْكُ الْعَاجِلِ لِلْآجِلِ. فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَلَّا يَغْفُلَ عَنْ نَفْسِهِ

---

(١) بلغة مجلس: كفاية مجلس، أى يكتفى للتحدث به فى المجلس

ولو صح أن الإمام الشافعى رضى الله عنه قال هذا فليس يقصد منه أن غير هذين العلمين لا فائدة منه سوى التحدث به فى المجالس، وإنما يقصد أنه يجب وجوبا عينيا على كل فرد أن يعرف من الفقه ما يستقيم به دينه وتصح عبادته ومن علم الطب ما يحفظ به صحته ويتق أسباب الأمراض وهو ما يسمى «علم تدبير الصحة»، وما عدا هذين العلمين فهو واجب وجوبا كفائيا

(٢) المذكور: أى ما يتعلق به العلم: كما هو: أى على حقيقته

(٣) هذا تعريف للفقه بالمعنى اللغوى العام الذى يشمل كل العلوم

وَمَا يَنْفَعُهَا وَمَا يَضُرُّهَا فِي أُولَاهَا وَأُخْرَاهَا، فَيَسْتَجْلِبُ مَا يَنْفَعُهَا وَيَجْتَنِبُ مَا يَضُرُّهَا كَيْلَا يَكُونَ عَقْلُهُ وَعِلْمُهُ حُجَّةً عَلَيْهِ فَيَزْدَادَ عُقُوبَةً، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُخْطِهِ وَعِقَابِهِ

وَقَدْ وَرَدَ فِي مَنَاقِبِ الْعِلْمِ وَفَضَائِلِهِ آيَاتٌ وَأَخْبَارٌ صَحِيحَةٌ مَشْهُورَةٌ لَمْ نَشْتَغِلْ بِذِكْرِهَا كَيْلَا يَطُولَ الْكِتَابُ (١)

﴿فصـــل فى النية حال التعلم﴾

ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ النِّيَّةِ فِي زَمَانِ تَعَلُّمِ الْعِلْمِ، إِذِ النِّيَّةُ هِيَ الْأَصْلُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» حَدِيثٌ

---

(١) قال تعالى: «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟! إنما يتذكر أولوا الألباب» سورة (الزمر) آية (٩)

وقال عزّ وجل: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» سورة المجادلة آية (١١)

وقال عز وجل: «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب» سورة البقرة آية (٢٦٩) وجاء فى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين – خير الدنيا والآخرة مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل»

صحيح، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كم من عمل يتصور بصورة أعمال الدنيا ويصير بحسن النية من أعمال الآخرة، وكم من عمل يتصور بصورة أعمال الآخرة، ثم يصير من أعمال الدنيا بسوء النية»، وينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم رضاء الله تعالى والدار الآخرة وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الإسلام، فإن بقاء الإسلام بالعلم ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل، أنشدني الأستاذ الشيخ الإمام الأجل برهان الدين صاحب الهداية لبعضهم:

فساد كبير عالم متهتك   وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة في العالمين عظيمة   لمن بهما في دينه يتمسك

وينوي به الشكر على نعمة العقل، وصحة البدن ولا ينوي به إقبال الناس إليه، ولا استجلاب حطام الدنيا، والكرامة عند السلطان وغيره قال محمد بن الحسن رحمه الله: لو كان الناس كلهم عبيدي لأعتقتهم وتبرأت عن ولائهم. وذلك لأن من وجد لذة العلم والعمل به قلما يرغب فيما

عند الناس

أنشدنا الشيخ الإمام الأجل الأستاذ قوام الدين حماد بن إبراهيم بن إسماعيل الصفار الأنصاري إملاء لأبي حنيفة رحمه الله تعالى شعرا:

من طلب العلم للمعاد   فاز بفضل من الرشاد

فيالخسران طالبيه   لنيل فضل من العباد

اللهم إلا إذا طلب الجاه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتنفيذ الحق وإعزاز الدين، لا لنفسه وهواه، فيجوز ذلك بقدر ما يقيم به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وينبغي لطالب العلم أن يتفكر في ذلك فإنه يتعلم العلم بجهد كثير فلا يصرفه إلى الدنيا الحقيرة القليلة الفانية

هي الدنيا أقل من القليل   وعاشقها أذل من الذليل

تصم بسحرها قوما وتعمي   فهم متحيرون بلا دليل

وينبغي لأهل العلم ألا يذل نفسه بالطمع في غير مطمع، ويتحرز عما فيه مذلة العلم وأهله، ويكون متواضعا، والتواضع بين التكبر والمذلة والعفة،

ويعرف ذلك في كتاب الأخلاق

أنشدني الشيخ الإمام الأجل الأستاذ ركن الإسلام المعروف بالأديب المختار رحمه الله شعرا لنفسه:

إن التواضع من خصال المتقي ... وبه التقي إلى المعالي يرتقي
ومن العجائب عجب من هو جاهل ... في حاله أهو السعيد أم الشقي
أم كيف يختم عمره أو روحه ... يوم النوى متسفل أو مرتقي
والكبرياء لربنا صفة به ... مخصوصة فتجنبها واتقي

قال أبو حنيفة رحمه الله لأصحابه: عظموا عمائمكم، ووسعوا أكمامكم(١) وإنما قال ذلك لئلا يستخف بالعلم وأهله. وينبغي لطالب العلم أن يحصل على كتاب الوصية التي كتبها أبو حنيفة ليونس بن خالد السمتي رحمة الله عليه عند الرجوع إلى أهله: يجده من يطلبه. وقد كان أستاذنا شيخ الإسلام

(١) المقصود من هذا أنه ينبغي للمتعلم أن يظهر بالمظهر الذي يكسبه الإجلال والاحترام تعظيما للعلم وإكبارا لشأنه.

برهان الأئمة علي بن أبي بكر قدس الله روحه العزيز أمرني بكتابته عند الرجوع إلى بلدي وكتبته، ولا بد للمدرس والمفتي في معاملات الناس منه

《فصل في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات》

ينبغي لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه(١) وما يحتاج إليه في أمر دينه في الحال، ثم ما يحتاج إليه في المآل، فيقدم علم التوحيد والمعرفة، ويعرف الله تعالى بالدليل، فإن إيمان المقلد وإن كان صحيحا عندنا لكن يكون آثما بترك الاستدلال(٢) ويختار العتيق(٣) دون المحدثات قالوا: عليكم بالعتيق

(١) أحسن كل علم ما كان من جوهره وصريحه، وخلص من المناقشات والخلافات. قال الشاعر:

ما حوى العلم جميعا أحد ... لا، ولو مارسه ألف سنه
إنما العلم بعيد غوره ... فخذوا من كل علم أحسنه

(٢) أي معرفة الدليل. وأفضل الأدلة في ذلك ما كان فطريا بسيطا كذلك الدليل الناصع الذي قاله الأعرابي في لهجة قوية صريحة: البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، فأرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على العلي القدير!؟

(٣) يريد بالعتيق ما تم الاتفاق عليه بعد أن قام البرهان القاطع على صحته، ويريد بالحديث ما يزال الخلاف فيه محتدما ولم تنفك أدلة الآراء المتصادمة فيه ينقض

وإياكم والمحدثات ، وإياك أن تشتغل بهذا الجدل الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء فإنه يبعد الطالب عن الفقه ، ويضيع العمر ، ويورث الوحشة والعداوة وهو من أشراط الساعة (١) وارتفاع العلم والفقه كذا ورد في الحديث (٢) وأما اختيار الأستاذ فينبغي أن يختار الأعلم والأورع والأسن ، كما اختار أبو حنيفة حماد بن سليمان رحمه الله بعد التأمل والتفكر وقال : وجدته شيخا وقورا حليما صبورا . وقال : ثبت عند حماد بن سليمان فنبت . قال رحمه الله سمعت حكيما من حكماء سمرقند يقول إن واحدا من طلبة العلم شاورني في طلب العلم ، وكان عازما على الذهاب إلى بخارى لطلب العلم — وهكذا ينبغي أن يشاور في كل أمر ، فإن الله

بعضها بعضا ، وذلك لأنه لا ينبغي للمتعلم أن يعتقد شيئا قبل أن يقوم البرهان على صحته

(١) أشراط جمع شرط بفتح الشين والراء العلامة . أي علامات يوم القيامة

(٢) يشير إلى ما رواه الديلمي عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تعلموا العلم قبل أن يرفع ، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده وعليكم بالعلم ، وإياكم والتنطع والتبدع والتعمق ، وعليكم بالعتيق »

تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالمشاورة في كل الأمور ، ولم يكن أحد أفطن منه ، ومع ذلك أمر بالمشاورة وكان يشاور أصحابه في جميع الأمور حتى حوائج البيت قال علي كرم الله وجهه : ما هلك امرؤ عن مشورة وقيل : الناس رجل ونصف رجل ولا شيء ، فالرجل من له رأي صائب ويشاور ، ونصف الرجل من له رأي صائب ، ولكن لا يشاور أو يشاور ولكن لا رأي له ، ولا شيء من لا رأي له ولا يشاور . قال جعفر الصادق رضي الله عنه لسفيان الثوري : شاور في أمرك الذين يخشون الله تعالى - وطلب العلم من أعلى الأمور وأصعبها فكانت المشاورة فيه أهم وأوجب (١) — قال الحكيم : إذا ذهبت إلى بخارى لا تعجل في الاختلاف (٢) إلى الأئمة وامكث شهرين حتى تتأمل وتختار أستاذا ،

(١) ما بين الشرطتين ليس من كلام الحكيم بل من كلام المؤلف ساقه هنا لبيان أهمية المشورة

(٢) الاختلاف إلى الأئمة هو التردد على مجالسهم لأخذ العلم عنهم .

فإنك إذا ذهبت إلى عالم وبدأت بالسبق (١) عنده ربما لا يعجبك درسه فتتركه وتذهب إلى آخر فلا يبارك لك فى التعلم، فتأمل شهرين فى اختيار الأستاذ وشاور حتى لا تحتاج إلى تركه والإعراض عنه فتثبت عنده حتى يكون تعلمك مباركا وتنتفع بعلمك كثيرا. واعلم أن الصبر والثبات أصل كبير فى جميع الأمور ولكنه عزيز كما قيل:

لكل إلى شأو العلا حركات ... ولكن عزيز فى الرجال ثبات

قيل: الشجاعة صبر ساعة، فينبغى لطالب العلم أن يثبت ويصبر على أستاذ وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر (٢) وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة فإن ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب، ويضيع الأوقات، ويؤذى المعلم. وينبغى أن يصبر عما تريده نفسه وهواه قال الشاعر:

(١) بدأت بالسبق عنده: أى بدأت بأخذ العلم عنه قبل التأمل وحسن الاختيار.

(٢) أبتر: ناقص.

إن الهوى لهو الهوان بعينه ... وصريع كل هوى صريع هوان

ويصبر على المحن والبليات فقد قيل: خزائن المنن على قناطر المحن. وأنشدت، وقيل إنه لعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه:

ألا لا تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن مجموعها ببيان

ذكاء وحرص واصطبار وبلغة (١) ... وإرشاد أستاذ وطول زمان

وأما اختيار الشريك فينبغى أن يختار المجد والورع وصاحب الطبع المستقيم، ويفر من الكسلان والمعطل والمكثار والمفسد والفتان (٢)

قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى (٣)

(١) البلغة: ما يتبلغ به من العيش

(٢) المكثار: كثير الكلام، والفتان: هو من يثير الفتن والمنازعات بين الناس

(٣) الذى أعرفه من رواية هذا الشعر هو قوله:

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

فَإنْ كَانَ ذَا شَرٍّ فَجَانِبْهُ سُرْعَةً ... وَإنْ كَانَ ذَا خَيْرٍ فَقَارِنْهُ تَهْتَدِى

وأُنْشِدْتُ :

لاتَصْحَبِ الكسلانَ فى حَالاته ... كَمْ صالحٍ بفساد آخَرَ يَفْسُدُ

عَدْوَى البليد إلى الجَلِيدِ سريعة ... كالجمر يوضَعُ فى الرَّماد فيخمدُ

وقال صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى فِطْرَةِ الإسْلَامِ إلاَّ أنَّ أَبَوَيْهِ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» الحَدِيثُ . وَيُقَالُ فى الحِكْمَةِ بالفَارِسِيَّةِ

يارِبَد بَدتر بودأز مارِبَد ... حق ذات پاك الله الصمد

يارِبَد آرد ترا سوئ جحيم ... يارِنيكو گيرتاياىنعيم[1]

وقيـــل :

إن كنتَ تبغى العلمَ من أهلِهِ ... أو شاهدا يُخْبِرُ عن غائبِ

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

ومن هذا المعنى ما رواه ابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اختبروا الناس بإخوانهم فإن الرجل يخادن من يعجبه نحوه » أى منهجه وطريقه

(١) جاء فى شرح الشيخ إبراهيم بن إسماعيل لهذا الكتاب بيانا لمعنى هذا الشعر الفارسى : يعنى أن الصاحب السوء أسوأ من الحية السوداء وأكثر منها ضرراً .

فاعتبر الأرضَ بأسمائهـــا ... واعتبر الصاحبَ بالصاحب[1]

﴿فصل فى تعظيم العلم وأهله﴾

اعلَمْ أن طالبَ العلمِ لاينالُ العلمَ ولا ينتفع به إلاَّ بتعظيم العلمِ وأهْلِهِ، وتعظيم الاستاذ وتَوْقيره ، فَقَدْ قيلَ : ماوَصَلَ مَنْ وصَلَ إلا بالحُرمة[2] وما سَقَطَ مَنْ سَقَطَ إلا بِتَرْكِ الحُرمة . وقيل : الحُرمة خيرٌ من الطاعة . ألا تَرَى أن الإنسانَ لايكفرُ بالمعصيةِ وإنما يكْفُر باستخفافها وبتركِ الحرمة ، ومن تعظيمِ العلمْ تعظيمُ المُعلِّمْ . قال علىٌّ كرم اللهُ وجْهَهُ : أنا عبدُ من علمنى حرفًا واحداً ، إن شاءَ باع ، وإن شاءَ أعتق ، وإن شاءَ استَرَقَّ . وقد أُنْشِدْتُ فى ذلك شعرا :

(١) فاعتبر الأرض بأسمائها : يمكن أن يقال إنّ المراد بأسمائها الأسماء التى تطلق عليها : فكلمة ضيعة تدل على أنها أرض ذات زرع وضرع ، وكلمة حديقة تدل على أنها ذات أشجار وثمار . . . ويمكن أن يقال إنّ المراد بأسمائها أسماء ساكنيها : فإذا شاعت بينهم أسماء صخر وحجر والقارظ ودارم دل ذلك على أنها أرض جبلية يكثر فيها شجر القرظ والدارم ، وإذا شاع فيها أسماء أسد وثعلب وكلب أو كلاب مثلا دل ذلك على أن هذه الحيوانات تكثر فيها .

(٢) الحرمة : المهابة والتعظيم .

رأيت أحقَّ الحقِّ حقَّ المعلِّم ... وأوجبَه حفظا على كل مسلم

لقد حقَّ أن يُهدى إليه كرامةً ... لتعليم حرفٍ واحدٍ ألفُ درهم

فإنَّ من علَّمك حرفا مما تحتاج إليه فى الدين فهو أبوك فى الدين . وكان أستاذنا الشيخُ الإمامُ سديدُ الدين الشيرازى رحمه الله تعالى يقول : قال مشايخنا رحمهم الله : من أراد أن يكونَ ابنه عالما فينبغى أن يُراعى الغرباءَ من الفقهاء ويكرمهم ويطعمهم ويعظّمهم ويعطيهم شيئا ، فإن لم يكن ابنه عالما كان حفيدُه عالما . ومن توقيرِ المعلِّم ألا يمشى أمامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبتدئ بالكلام عنده إلا بإذنه ، ولا يُكثر الكلامَ عنده إلا بإذنه ، ولا يسأل شيئا عند ملالته (١) ، ويُراعى الوقت ولا يدقَّ الباب بل يصبر حتى يخرج

وفى الجملة يطلب رضاه ، ويجتنب سخطه ، ويمتثل أمره فى غير معصية الله تعالى ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق كما قال النبى عليه الصلاة

(١) الملالة : الضجر والسأم . ويراعى الوقت : أى لا يفعل شيئا إلا فى الوقت المناسب له .

والسلام : «إنَّ شرَّ الناس من يذهب دينه لدنيا غيره»

ومن توقيره توقيرُ أولاده ومن يتعلق به ، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين صاحب الهداية رحمة الله عليه يحكى أن واحدا من كبار أئمة بخارى كان يجلس مجلس الدرس وكان يقوم فى خلال الدرس أحيانا فسألوه عن ذلك فقال : إن ابن أستاذى يلعب مع الصبيان فى السكة ويجىء أحيانا إلى باب المسجد فإذا رأيته أقوم له تعظيما لأستاذى ، وكان القاضى الإمام فخر الدين الأرسابندى رئيس الأئمة فى مرو ، وكان السلطان يحترمه غاية الاحترام ، ويقول : إنما وجدت فى هذا المنصب بخدمة الأستاذ فإنى كنت أخدم الأستاذ القاضى الإمام أبا يزيد الدبوسى ، وكنت أخدمه وأطبخ طعامه ثلاثين سنة ولا آكل منه شيئا . وكان الشيخ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلوانى رحمه الله قد خرج من بخارى وسكن فى بعض القرى أياما لحادثة وقعت له ، وقد زاره تلاميذه غير الشيخ الإمام القاضى شمس الأئمة الزرنجى رحمه الله تعالى ، فقال له حين لقيه : لِمَ لم تزرنى ؟ فقال له :

كنت مشغولاً بخدمة الوالدة، فقال: ترزق العمر، ولا ترزق رونق الدرس، وكان كذلك، فإنه كان يسكن في أكثر أوقاته القرى ولم ينتظم له الدرس. فمن تأذى منه أستاذه يحرم بركة العلم ولم ينتفع به إلا قليلاً

إن المعلم والطبيب كلاهما ... لا ينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ... واقنع بجهلك إن جفوت معلما

وحكي أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي ليعلمه العلم والأدب، فرآه يوماً يتوضأ ويغسل رجله وابن الخليفة يصب الماء على رجله، فعاتب الأصمعي في ذلك بقوله: إنما بعثته إليك لتعلمه وتؤدبه فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه ويغسل بالأخرى رجلك؟

ومن تعظيم العلم تعظيم الكتاب، فينبغي لطالب العلم ألا يأخذ الكتاب إلا بالطهارة

وحكي عن الشيخ شمس الأئمة الحلواني رحمة الله عليه أنه قال: إنما

نلت هذا العلم بالتعظيم، فإني ما أخذت الكاغد (١) إلا بالطهارة. والشيخ الإمام شمس الأئمة السرخسي رحمه الله تعالى كان مبطوناً (٢) وكان يكرر (٣) في ليلة فتوضأ في تلك الليلة سبع عشرة مرة، لأنه كان لا يكرر إلا بالطهارة وهذا لأن العلم نور، والوضوء نور، فيزداد نور العلم به.

ومن التعظيم الواجب ألا يمد رجله إلى الكتاب، ويضع كتب التفسير فوق سائر الكتب تعظيماً، ولا يضع على الكتاب شيئاً آخر، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين رحمه الله تعالى يحكي عن شيخ من المشايخ أن فقيهاً كان وضع المحبرة على الكتاب فقال له بالفارسية: «برنيابى (٤)» وكان أستاذنا القاضي الإمام الأجل فخر الإسلام المعروف بقاضيخان رحمه الله تعالى يقول: إن لم يرد بذلك الاستخفاف فلا بأس

(١) الكاغد بفتح الغين: القرطاس

(٢) المبطون هو من يشتكي بطنه (٣) يريد مذاكرة العلم

(٤) في شرح الشيخ إبراهيم بن إسماعيل أن معنى هذه الكلمة: لا تجد النفع من علمك.

به، والأولى أن يتحرز عنه، ومن التعظيم الواجب أن يجود كتابة الكتاب، ولا يقرمط (١)، ويترك الحاشية إلا عند الضرورة. ورأى أبو حنيفة رحمه الله تعالى كاتبا يقرمط في الكتابة. فقال: لم تقرمط خطك إن عشت تندم، وإن مت تشتم. يعني إذا شخت وضعف بصرك ندمت على ذلك.

وحكي عن الشيخ الإمام مجد الدين السرخكي (٢) أنه قال: ما قرمطنا إلا ندمنا، وما انتخبنا إلا ندمنا، وما لم نقابل إلا ندمنا (٣) وينبغي أن يكون تقطيع الكتاب مربعا فإنه تقطيع أبي حنيفة رحمه الله وهو أيسر إلى الرفع والوضع والمطالعة، وينبغي ألا يكون في الكتاب شيء من الحمرة فإنها

(١) يقرمط: يدقق الكتابة ويصغرها

(٢) في نسخة أخرى: الشيخ الإمام محمد مجد الدين الصرخكي

(٣) ما انتخبنا: لخصنا، أي ما تركنا شيئا إلا احتجنا إلى ما تركناه ووددنا لو كان ما معنا مفصلا متوسعا فيه. وما لم نقابل: أي ما فرطنا في المراجعة ومقابلة النسخة المكتوبة حديثا على الأخرى المصححة إلا ندمنا لعثورنا على أخطاء وأغلاط في النسخة الحديثة.

صنيع الفلاسفة لا صنيع السلف: ومن مشايخنا من كره استعمال المركب (١) الأحمر. ومن تعظيم العلم تعظيم الشركاء في طلب العلم والدرس ومن يتعلم منه. والتملق (٢) مذموم إلا في طلب العلم، فإنه ينبغي أن يتملق لأستاذه وشركائه ليستفيد منهم، وينبغي لطالب العلم أن يستمع العلم والحكمة بالتعظيم والحرمة، وإن سمع المسألة الواحدة أو الكلمة الواحدة ألف مرة قيل من لم يكن تعظيمه بعد ألف مرة كتعظيمه في أول مرة، فليس بأهل للعلم وينبغي لطالب العلم ألا يختار نوع علم بنفسه بل يفوض أمره إلى الأستاذ فإن الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك فكان أعرف بما ينبغي لكل أحد وما يليق بطبيعته. وكان الشيخ الإمام الأجل الأستاذ برهان الدين يقول كان طلبة العلم في الزمان الأول يفوضون أمورهم في التعلم إلى أستاذهم، فكانوا يصلون إلى مقاصدهم ومرادهم؛ والآن يختارون بأنفسهم فلا يحصل

(١) المركب: المداد

(٢) التملق: التودد والتلطف. والتملق المذموم هو المتكلف المصطنع استجلابا لفائدة مادية لأنه حينئذ يدل على الضعف والمهانة والصغار.

مقصودهم من العلم والفقه ، وكان يحكى أن محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى كان بدأ بكتاب الصلاة على محمد بن الحسن ، فقال له محمد رحمه الله تعالى : اذهب وتعلم علم الحديث . لما رأى أن ذلك العلم أليق بطبعه فطلب علم الحديث فصار فيه مقدما على جميع أئمة الحديث . وينبغي لطالب العلم ألا يجلس قريبا من الأستاذ عند السبق (١) بغير ضرورة ، بل ينبغي أن يكون بينه وبين الأستاذ قدر القوس ، فإنه أقرب إلى التعظيم . وينبغي لطالب العلم أن يحترز عن الأخلاق الذميمة ، فإنها كلاب معنوية ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة . وإنما يتعلم الإنسان بواسطة الملك ، والأخلاق الذميمة تعرف في كتاب الأخلاق ، وكتابنا هذا لا يحتمل بيانها . وليحترز خصوصا عن التكبر فمع التكبر لا يحصل العلم . قيل :

---

(١) السبق : استماع الدرس ، وكأنه أخذه من قوله تعالى في سورة النازعات «فالسابقات سبقا» على رأى من فسره بأن الملائكة والجن كانوا يتسابقون إلى استماع الوحي .

العلم حرب للفتى المتعالي ... كالسيل حرب للمكان العالي

وقيل :

بجدي لا بجد كل مجد ... فهل جد بلا جد بمجدي (١)

فكم عبد يقوم مقام حر ... وكم حر يقوم مقام عبد (٢)

﴿فصل في الجد والمواظبة والهمة﴾

ثم لا بد من الجد والمواظبة والملازمة لطالب العلم ، وإليه الإشارة في القرآن بقوله تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» وقوله تعالى «يا يحيى خذ الكتاب بقوة» وقد قيل : من طلب شيأ وجد وجد ، ومن

---

(١) بجدي بكسر الجيم : أي بلغت العلا باجتهادي ونشاطي لا بأعمامي . لا بجد كل مجد : أي لم أصل إلى غرضي بسعي غيري واجتهاد سواي فلست عظاميا فهل جد بفتح الجيم : حظ وبخت ، أي أن الحظ والبخت لا يفيد شيئا إذا لم يكن هناك جد واجتهاد ، وفرص السعادة والمجد تسنح لكل الناس أولا كثرهم ولكن قل منهم من ينتهزها ، فهي كالطائر يحلق فوق الرؤس فاليقظ النشيط يثب إليه ويمسه ، والكسول البليد يقف أمامه جامدا

(٢) يعني أن الجد والعمل يرفع العبيد الأذلاء إلى مقام السادة الأمجاد والكسل والخمول يحط السادة الأشراف إلى حضيض العبيد الأذلاء .

قرع الباب ولج ولج (١) . وقيل : بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى قيل : يحتاج في التعلم والتفقه إلى الجد ثلاثة : المتعلم والأستاذ والأب إن كان في الأحياء. أنشدني الشيخ الإمام الأستاذ سديد الدين الشيرازي رحمة الله عليه للإمام الشافعي :

الجد يدني كل أمر شاسع   والجد يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهم امرؤ   ذو همة يبلى بعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وحكمه   بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق (٢)
لكن من رزق الحجى حرم الغنى   ضدان يفترقان أي تفرق

---

(١) لج : ألح وشدد. ولج : دخل

(٢) حيث كان يجب أن يكون البيت هو الغنى الطيب العيش لتفوقه بعقله وذكائه فلما رأينا الأحمق الغني هو الأكثر غنى والأطيب عيشا عرفنا أن هناك قوة أخرى هي التي قلبت الأمر وعكست ما يقتضيه العقل والمنطق وتلك القوة هي التي يسميها الشاعر حكم القضاء أي قضاء الله وحكمه . ولكن ما أحسن قول المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وأنشدت لغيره :

تمنيت أن تمسي فقيها مناظرا   بغير عناء والجنون فنون
وليس اكتساب المال دون مشقة   تحملها ، فالعلم كيف يكون ؟ (١)

قال أبو الطيب :

ولم أر في عيوب الناس عيبا   كنقص القادرين على التمام (٢)

ولا بد للطالب من سهر الليالي كما قال الشاعر :

بقدر الكد تكتسب المعالي   ومن طلب العلا سهر الليالي
تروم العز ثم تنام ليلا   يغوص البحر من طلب اللآلي
علو الكعب (٣) بالهمم العوالي   وعز المرء في سهر الليالي

---

(١) أي يكون اكتساب العلم بدون مشقة مع أنه أعظم شأنا وأصعب منالا من المال

(٢) أي أن أعظم عيوب القادرين هو تقصيرهم عن بلوغ الغاية فيما يقدرون عليه بسبب الإهمال والتفريط والكسل

(٣) يعني ارتفاع الشأن .

وَمَنْ رَامَ الْعُلَا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ ... أَضَاعَ الْعُمْرَ فِي طَلَبِ الْمُحَالِ

تَرَكْتُ النَّوْمَ رَبِّي فِي اللَّيَالِي ... لِأَجْلِ رِضَاكَ يَا مَوْلَى الْمَوَالِي

فَوَفِّقْنِي إِلَى تَحْصِيلِ عِلْمٍ ... وَبَلِّغْنِي إِلَى أَقْصَى الْمَعَالِي

وَقِيلَ: اتَّخِذِ اللَّيْلَ جَمَلًا تُدْرِكْ بِهِ أَمَلًا. قَالَ الْمُصَنِّفُ(١) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَقَدِ اتَّفَقَ لِي نَظْمٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

مَنْ شَاءَ أَنْ يَحْتَوِيَ آمَالَهُ جُمَلًا ... فَلْيَتَّخِذْ لَيْلَهُ فِي دَرْكِهَا جَمَلًا

أَقْلِلْ طَعَامَكَ كَيْ تَحْظَى بِهِ ثَمَرًا ... إِنْ شِئْتَ يَا صَاحِبِي أَنْ تَبْلُغَ الْكَمَلَا(٢)

وَقِيلَ: مَنْ أَسْهَرَ نَفْسَهُ بِاللَّيْلِ، فَقَدْ فَرَّحَ قَلْبَهُ بِالنَّهَارِ، وَلَا بُدَّ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مِنَ الْمُوَاظَبَةِ عَلَى الدَّرْسِ وَالتَّكْرَارِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَآخِرِهِ، فَإِنَّ مَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ وَوَقْتَ السَّحَرِ وَقْتٌ مُبَارَكٌ. قيل في المعنى شعر:

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ بَاشِرِ الْوَرَعَا ... وَجَنِّبِ النَّوْمَ وَاتْرُكِ الشِّبَعَا

(١) يريد نفسه
(٢) الكمل بفتح الكاف والميم: الكامل، ويريد به الكمال.

دَاوِمْ عَلَى الدَّرْسِ لَا تُفَارِقْهُ ... فَالْعِلْمُ بِالدَّرْسِ قَامَ وَارْتَفَعَا

فَيَغْتَنِمُ أَيَّامَ الْحَدَاثَةِ وَعُنْفُوَانَ(١) الشَّبَابِ كَمَا قِيلَ:

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُعْطَى مَا تَرُومُ ... فَمَنْ رَامَ الْمُنَى لَيْلًا يَقُومُ

وَأَيَّامَ الْحَدَاثَةِ فَاغْتَنِمْهَا ... أَلَا إِنَّ الْحَدَاثَةَ لَا تَدُومُ

وَلَا يُجْهِدُ نَفْسَهُ جَهْدًا، وَلَا يُضْعِفُ النَّفْسَ حَتَّى يَنْقَطِعَ عَنِ الْعَمَلِ بَلْ يَسْتَعْمِلُ الرِّفْقَ فِي ذَلِكَ، وَالرِّفْقُ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا(٢) فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ(٣) عَلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ(٤) لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى». وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَفْسُكَ مَطِيَّتُكَ فَارْفُقْ بِهَا». وَلَا بُدَّ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مِنَ الْهِمَّةِ الْعَالِيَةِ فِي الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَطِيرُ بِهِمَّتِهِ كَالطَّيْرِ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ.

(١) عنفوان الشباب: قوته وحدته (٢) أوغلوا: اذهبوا فيه وتعمقوا
(٣) تبغض على نفسك: تثقل وتصعب
(٤) المنبت: المنقطع عن السفر لإجهاده مطيه حتى نفقت.

قال أبو الطيب:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم (١)

والرأس (٢) في تحصيل الأشياء الجد والهمة العالية، فمن كانت همته حفظ جميع كتب محمد بن الحسن رحمه الله تعالى واقترن بذلك الجد والمواظبة، فالظاهر أنه يحفظ أكثرها أو نصفها. فأما إذا كانت له همة عالية، ولم يكن له جد، أو كان له جد ولم يكن له همة عالية، فلا يحصل له علم إلا القليل. وذكر الشيخ الأجل الإمام الأستاذ رضي الدين النيسابوري رحمه الله في كتاب مكارم الأخلاق أن ذا القرنين لما أراد أن يسافر ليستولي

(١) العزائم: جمع عزيمة وهي الإرادة والتصميم. والمعنى أن العزائم والمكارم تكون بحسب أقدار فاعليها؛ فإذا كانت أقدار فاعليها عظيمة كانت هي عظيمة أيضا وإذا كانت أقدارهم صغيرة كانت عزائمهم ومكارمهم صغيرة أيضا لأن ضعيف الهمة صغير النفس يرى الأمور الصغيرة كبيرة عظيمة. أما عالي الهمة، كبير النفس، فإنه يرى الأمور صغيرة وصعابها سهلة هينة

(٢) الرأس في تحصيل الأشياء: يعني الأصل والأساس.

على المشرق والمغرب شاور الحكماء في ذلك، وقال: كيف أسافر لهذا القدر من الملك فإن الدنيا قليلة فانية وملك الدنيا أمر حقير، فليس هذا من علو الهمة. فقال الحكماء: سافر ليحصل لك ملك الدنيا والآخرة. قال: هذا أحسن. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها (١). وقيل:

فلا تعجل بأمرك واستدمه   فما صلى عصاك كمستديم (٢)

قال أبو حنيفة لأبي يوسف رحمهما الله تعالى: كنت بليدا فأخرجتك المواظبة، وإياك والكسل فإنه شؤم وآفة عظيمة. قال الشيخ الإمام أبو نصر الصفار الأنصاري رحمه الله تعالى:

يا نفس يا نفس لا ترخي عن العمل   في البر والعدل والإحسان في مهل
لكل ذي عمل في الخير مغتبط   وفي بلاء وشؤم كل ذي كسل

(١) السفساف: الرديء الحقير

(٢) صلى عصاك: أي لينها بالنار ليسهل تقويمها: والمعنى أن خير وسائل تقويم المعوج وإصلاح الفاسد، الاستدامة والاستمرار.

قال المصنف وقد اتفق لي في هذا المعنى:

دعي نفسي التكاسل والتواني ... وإلا فاثبتي في ذا (١) الهوان

فلم أر للكسالى الحظ يعطي ... سوى ندم وحرمان الأماني

وقيل:

كم من حياء وكم عجز وكم ندم ... جم تولد للإنسان من كسل (٢)

إياك عن كسل في البحث عن شبه ... فما علمت، وما قد شذ عنك سل (٣)

وقد قيل: الكسل من قلة التأمل في مناقب العلم وفضائله، فينبغي للمتعلم أن يبعث نفسه على التحصيل والجد والمواظبة بالتأمل في فضائل العلم، فإن العلم يبقى ببقاء المعلومات، والمال يفنى، كما قال أمير المؤمنين علي

(١) ذا الهوان: أي هذا الهوان

(٢) المراد بالحياء هنا الخجل، يعني أن الكسل كثيرا ما خجل الإنسان بسببه ووقف عاجزا نادما

(٣) إياك عن كسل: ابتعد عن الكسل، شذ عنك: بعد عنك وصعب عليك أي لا تتوان ولا تفرط في البحث والتنقيب حتى تعثر على ما يزيل ما عندك من شبه وشكوك، فالذي استطعت أن تعلمه بنفسك اكتفيت به، والذي صعب عليك الاهتداء إلى الصواب فيه فاسأل عنه أهل العلم به.

ابن أبي طالب كرم الله وجهه:

رضينا قسمة الجبار فينا ... لنا علم وللأعداء مال

فإن المال يفنى عن قريب ... وإن العلم يبقى لا يزال

والعلم النافع يحصل به حسن الذكر ويبقى ذلك بعد وفاته، فإنه حياة أبدية. أنشدنا الشيخ الإمام الأجل ظهير الدين مفتي الأئمة حسن بن علي المعروف بالمرغيناني رحمه الله تعالى:

الجاهلون فموتى قبل موتهم ... والعالمون وإن ماتوا فأحياء (١)

وأنشدنا شيخ الإسلام برهان الدين:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحي بالعلم ميت ... وليس له حين النشور نشور (٢)

(١) موتى: جمع ميت، والفاء على تقدير أما في الكلام: أي أما الجاهلون فهم موتى.

(٢) النشور: البعث، يقال: يوم النشور أي يوم البعث.

وقال غيره :

أخو العلم حي خالد بعد موته — وأوصاله تحت التراب رميم (١)

وذو الجهل ميت وهو يمشي على الثرى — يظن من الأحياء وهو عديم (٢)

وقال آخر :

حياة القلب علم فاغتنمه — وموت القلب جهل فاجتنبه

وأنشدنا الشيخ الأستاذ شيخ الإسلام برهان الدين رحمه الله :

ذا العلم أعلى رتبة في المراتب — ومن دونه عز العلى في المواكب (٣)

فذو العلم يبقى عزه متضاعفا — وذو الجهل بعد الموت تحت التيارب (٤)

---

(١) رميم : بالية وفانية

(٢) الثرى : التراب الندى والمقصود به هنا الأرض

(٣) المواكب جمع موكب ، وهو الجماعة السائرة ركبانا أو مشاة ، والمقصود مطلق الجماعة ، يعني أن هذا العلم منزلته أعلى المنازل وأشرفها وكل المعالي والرياسات في الجماعات دونه في الشرف والرفعة

(٤) التيارب جمع تيرب وهو التراب ، يعني أن المتعلم لايزول عزه ومجده بعد وفاته بل يبقى كاملا غير منقوص ، وقد يتضاعف بما يناله في الآخرة من سعادة ونعيم . أما الجاهل فإن عزه يزول بعد دفنه تحت التراب .

فهيهات لايرجو مداه من ارتقى — رقي ولي الملك والي الكتائب (١)

سأملي عليكم بعض مافيه فاسمعوا — فبي حصر عن ذكر كل المناقب (٢)

هو النور كل النور يهدي عن العمى — وذو الجهل مر الدهر بين الغياهب (٣)

هو الذروة الشماء تحمي من التجا — إليها ويمشي آمنا في النوائب (٤)

به ينتجي والناس في غفلاتهم — به يرتجي والروح بين الترائب (٥)

به يشفع الإنسان من راح عاصيا — إلى درك النيران شر العواقب (٦)

---

(١) مداه : غايته ، والي : حاكم ، الكتائب: جمع كتيبة وهي الفرقة العظيمة من الجنود يعني أن الملوك والسلاطين أصحاب الجنود العديدة والجيوش الكبيرة لايبلغون من العز والمجد مبلغ العلماء والحكماء.

(٢) حصر بفتح الحاء والصاد : عجز وعي . المناقب جمع منقبة : المفخرة والفضيلة

(٣) مر الدهر : مدى الدهر ، الغياهب جمع غيهب : الظلام الشديد

(٤) الذروة : ذروة كل شيء أعلاه فذروة الجبل قنته ، والشماء : المرتفعة العالية ، أي أن العلم ينجي صاحبه من المهالك ، ويحميه من المعاطب كما تحمي الذروة العالية من التجأ إليها وتنجي من اعتصم بها (٥) ينتجي : يطلب النجاة ، الترائب : عظام الصدر ، يعني أن العلم ينجي من الضلال في الحياة الدنيا ومن العذاب في الآخرة ويرجو المرء حين تحضره الوفاة أن يغفر الله له ذنوبه

(٦) يشفع الإنسان من راح عاصيا : أي يضم العالم بعض حسناته إلى حسنات

فَمَنْ رَامَهُ رَامَ الْمَآرِبَ كُلَّهَا ... وَمَنْ حَازَهُ قَدْ حَازَ كُلَّ الْمَطَالِبِ (١)

هُوَ الْمَنْصَبُ الْعَالِي فَيَا صَاحِبَ الْحِجَا ... إِذَا نِلْتَهُ هَوِّنْ بِفَوْتِ الْمَنَاصِبِ (٢)

فَإِنْ فَاتَكَ الدُّنْيَا وَطِيبُ نَعِيمِهَا ... فَغَمِّضْ فَإِنَّ الْعِلْمَ خَيْرُ الْمَوَاهِبِ

وَأُنْشِدْتُ لِبَعْضِهِمْ :

إِذَا مَا اعْتَزَّ ذُو عِلْمٍ بِعِلْمٍ ... فَعِلْمُ الْفِقْهِ أَوْلَى بِاعْتِزَازِ

فَكَمْ طِيبٍ يَفُوحُ وَلَا كَمِسْكٍ ... وَكَمْ طَيْرٍ يَطِيرُ وَلَا كَبَازِي (٣)

من مات عاصيا ، فترجح حسناته على سيئاته فيغفر له الله ويعفو عنه . والدرك جمع دركة وهى المنزلة . فهى فى الهبوط تقابل الدرجة فى الصعود . والعواقب جمع عاقبة وهى النهاية . وشر بالجر صفة للنيران .

(١) رامه : طلبه ، والمآرب جمع مأرب : الغرض والمطلب .

(٢) المنصب بفتح الميم والصاد : المقام . الحجا : العقل ، هوّن بفوت المناصب : اعتبر فوات المناصب الأخرى وضياعها والحرمان منها أمراهينا لا يؤبه له ولا يهتم به

(٣) يفوح : ينتشر . والبيت يتضمن مثلين سائرين يضرب كل منهما لبيان فضل الشىء وغيره أفضل منه : فكم طيب يفوح ولا كمسك أى أن الطيب الذى تنتشر رائحته وتعطر الجو كثير ولكنه فى طيب رائحته وجمال شذاه ليس كالمسك لأن المسك أطيب منه وأزكى ، وكذلك وكم طير يطير ولا كبازى : معناه أن البازى أقوى الطيور كلها وأشدها طيرانا .

وَأُنْشِدْتُ أَيْضًا :

الْفِقْهُ أَنْفَسُ شَيْءٍ أَنْتَ دَاخِرُهُ ... مَنْ يَدْرُسِ الْعِلْمَ لَمْ تَدْرُسْ مَفَاخِرُهُ (١)

فَاكْسِبْ لِنَفْسِكَ مَا أَصْبَحْتَ تَجْهَلُهُ ... فَأَوَّلُ الْعِلْمِ إِقْبَالٌ وَآخِرُهُ

وَكَفَى بِلَذَّةِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ دَاعِيًا وَبَاعِثًا لِلْعَاقِلِ عَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ . وَقَدْ يَتَوَلَّدُ الْكَسَلُ مِنْ كَثْرَةِ الْبَلْغَمِ وَالرُّطُوبَاتِ وَطَرِيقُ تَقْلِيلِهِ تَقْلِيلُ الطَّعَامِ . قِيلَ : اتَّفَقَ سَبْعُونَ نَبِيًّا عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَنَّ أَكْثَرَ النِّسْيَانِ مِنْ كَثْرَةِ الْبَلْغَمِ وَكَثْرَةَ الْبَلْغَمِ مِنْ كَثْرَةِ شُرْبِ الْمَاءِ ، وَكَثْرَةَ شُرْبِ الْمَاءِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَكْلِ ، وَالْخُبْزُ الْيَابِسُ يَقْطَعُ الْبَلْغَمَ ؛ وَكَذَلِكَ أَكْلُ الزَّبِيبِ عَلَى الرِّيقِ ، وَلَا يُكْثِرُ مِنْهُ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى شُرْبِ الْمَاءِ فَيَزِيدُ الْبَلْغَمُ ، وَالسِّوَاكُ يُقَلِّلُ الْبَلْغَمَ وَيَزِيدُ فِي الْحِفْظِ وَالْفَصَاحَةِ ، فَإِنَّهُ سُنَّةٌ سَنِيَّةٌ ، وَيَزِيدُ فِي ثَوَابِ الصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ؛ وَكَذَلِكَ الْقَيْءُ يُقَلِّلُ الْبَلْغَمَ وَالرُّطُوبَاتِ ، وَطَرِيقُ تَقْلِيلِ

(١) المراد بالفقه فى هذا البيت العلم مطلقا . وداخره : أى مدخره ومقتصده ، من يدرس العلم أى يقرأه ، ولم تدرس مفاخره أى لم تنمح أسباب فخره ودواعى مجده .

الأكل التأمل فى منافع قلة الأكل ، وهى الصحة والعفة والإيثار (١)

وقد قيل :

فعار ثم عار ثم عار   شقاء المرء من أجل الطعام (٢)

وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : «ثلاثة نفر يبغضهم الله تعالى من غير جرم (٣) : الأكول والبخيل والمتكبر» والتأمل (٤) فى مضار كثرة الأكل وهى الأمراض وكلالة الطبع . قيل : البطنة تذهب الفطنة (٥)

(حكى) عن جالينوس أنه قال : الرمان نفع كله ، والسمك ضرر كله ،

---

(١) الإيثار : هو اختيار منفعة الغير ومصلحته عند تعارضها مع منفعة النفس ومصلحتها ، كما إذا كان اثنان فى حالة عطش ومع أحدهما مايكفيه وحده من الماء فيقدمه لرفيقه ويحرم منه نفسه

(٢) أى أن الطعام وحده لا يستحق أن يشقى الإنسان نفسه من أجله لأن القليل منه يكفى ، والذى يستحق أن يشقى الإنسان نفسه من أجله إنما هو العلم لأنه السبيل الوحيد إلى المجد والشرف

(٣) جرم : إثم وذنب

(٤) والتأمل بالرفع لأنه معطوف على التأمل فى منافع قلة الأكل

(٥) البطنة بكسر الباء : امتلاء البطن بالأكل ، والفطنة بكسر الفاء : الذكاء والتيقظ .

وقليل السمك خير من كثير الرمان . وفيه أيضا إتلاف المال ، والأكل فوق الشبع ضرر محض ، ويستحق به العقاب فى الدار الآخرة ، والأكول بغيض فى القلوب ، وطريق تقليل الأكل أن يأكل الأطعمة الدسمة ، ويقدم فى الأكل الألطف والأشهى ؛ ولا يأكل مع الجياع ، إلا إذا كان له غرض صحيح فى كثرة الأكل ، بأن يتقوى به على الصيام والصلاة والأعمال الشاقة فله ذلك

فصل فى بداية السبق وقدره وترتيبه

كان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين رحمه الله تعالى يقف (١) بداءة السبق على يوم الأربعاء ، وكان يروى فى ذلك حديثا ، ويستدل به ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما من شىء بدئ فى يوم الأربعاء إلا وقد تم» ، وهكذا كان يفعل أبو حنيفة رحمه الله تعالى ، وكان يروى هذا

---

(١) يقف : يحصر ويقصر .

الحديث عن أستاذه الشيخ الإمام الأجل قوام الدين أحمد بن عبد الرشيد رحمه الله تعالى، وسمعت ممن أثق به أن الشيخ أبا يوسف الهمداني رحمه الله تعالى كان يقف كل عمل من أعمال الخير على يوم الأربعاء، وهذا لأن يوم الأربعاء يوم خلق فيه النور، وهو يوم نحس في حق الكفار فيكون مباركا للمؤمنين (١)

وأما قدر السبق في الابتداء، فقد كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يحكي عن الشيخ القاضي الإمام عمر بن الإمام أبي بكر الزرنجي رحمه الله تعالى أنه قال: قال مشايخنا رحمهم الله تعالى: ينبغي أن يكون قدر السبق للمبتدئ قدر ما يمكن ضبطه بالإعادة مرتين بالرفق، ويزيد كل يوم كلمة حتى إنه وإن طال السبق وكثر يمكن ضبطه بالإعادة مرتين، ويزيد بالرفق والتدريج فأما إذا طال السبق في الابتداء (٢) واحتاج إلى الإعادة عشر مرات، فهو

(١) الحق أن الأيام كلها تستوى عند الله وأن التفاؤل أو التشاؤم ببعض الأيام أو الساعات ليس من الدين فى شىء.

(٢) فأما إذا طال السبق فى الإبتداء، يعنى أن طول الاستماع لا ينبغى أن

فى الانتهاء أيضا يكون كذلك لأنه يعتاد ذلك. ولا يترك تلك العادة إلا بجهد كثير، وقد قيل: السبق حرف والتكرار ألف (١) وينبغي أن يبتدئ بشيء يكون أقرب إلى فهمه، وكان الشيخ الإمام الأستاذ شرف الدين العقيلي رحمه الله تعالى يقول: الصواب عندي في هذا ما فعله مشايخنا رحمهم الله فإنهم كانوا يختارون للمبتدئ صغارات المبسوط (٢)، لأنه أقرب إلى الفهم والضبط، وأبعد عن الملالة وأكثر وقوعا بين الناس، وينبغي أن يعلق السبق بعد الضبط (٣) والإعادة كثيرا، فإنه نافع جدا، ولا يكتب المتعلم شيئا لا يفهمه، فإنه يورث كلالة الطبع، ويذهب الفطنة ويضيع أوقاته، وينبغي أن يجتهد في الفهم عن الأستاذ، أو بالتأمل والتفكر وكثرة

يزيد على أن يعاد البيان والشرح مرتين فى الموضوع الواحد، أما إذا زاد عن ذلك فإنه يعتاد طول الاستماع وتكرار الشرح فيبطؤ فهمه ويتبلد عقله

(١) السبق حرف والتكرار ألف أى تعلم قليلا وكرر ما تعلمته كثيرا، وهذا مثل قولهم: قراءة كتاب واحد مرتين أنفع من قراءة كتابين مرة واحدة.

(٢) يعنى الكتب الصغيرة التى تتضمن خلاصات الكتب المطولة.

(٣) تعليق السبق: كتابة خلاصة الدرس وهو ما يسمى الآن بالملخص السبورى.

التكرار ، فإنه إذا قل السبق وكثر التكرار والتأمل يدرك ويفهم ، فقد قيل حفظ حرفين خير من سماع وقرين ، وفهم حرفين خير من حفظ وقرين (١) وإذا تهاون في الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين يعتاد ذلك ، فلا يفهم الكلام اليسير ، فينبغي ألا يتهاون في الفهم بل يجتهد ويدعو الله تعالى ويتضرع إليه ، فإنه يجيب من دعاه ، ولا يخيب من رجاه ، أنشدنا الشيخ الإمام الأجل قوام الدين حماد بن إبراهيم بن إسماعيل الصفار رحمه الله تعالى إملاء للقاضي الخليل بن أحمد السجزري (٢) في ذلك :

اخدم العلم خدمة المستفيد ... وأدم درسه بعقل حميد
وإذا ما حفظت شيئا أعده ... ثم أكده غاية التأكيد
ثم علقه كي تعود إليه ... وإلى درسه على التأبيد
وإذا ما أمنت منه فواتا ... فانتدب بعده لشيء جديد (٣)

(١) وقرين مثنى وقر بكسر الواو : الحمل الثقيل .

(٢) في بعض النسخ : السرخسي (٣) فانتدب : سارع ، أي كلما توثقت من فهم شيء وحفظه وأمنت من نسيانه ، بادر إلى تعلم غيره .

مع تكرار ما تقدم منه ... واعتناء بشأن هذا المزيد
ذاكر الناس بالعلوم لتحيا ... لا تكن من أولي النهى ببعيد
إن كتمت العلوم أنسيت حتى ... لا ترى غير جاهل وبليد
ثم ألجمت في القيامة نارا ... وتلهبت في العذاب الشديد (١)

ولا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة فينبغي أن يكون بالإنصاف والتأني والتأمل ، ويتحرز عن الشغب والغضب ، فإن المناظرة والمذاكرة مشاورة ، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب وذلك إنما يحصل بالتأمل والتأني والإنصاف ، ولا يحصل بالغضب والشغب ، فإن كانت نيته إلزام الخصم فلا تحل المناظرة ، وإنما تحل لإظهار الحق . والتمويه والحيلة فيها لا تجوز إلا إذا كان الخصم متعنتا لا طالبا للحق

(١) في هذين البيتين إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم : «من علم علما فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» وقال صلى الله عليه وسلم «ما آتى الله أحدا علما إلا أخذ عليه الميثاق ألا يكتمه أحدا» .

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا تَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْإِشْكَالُ وَلَمْ يَحْضُرْهُ الْجَوَابُ يَقُولُ: مَا أَلْزَمْتَهُ لَازِمٌ، وَأَنَا فِيهِ نَاظِرٌ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.

وَفَائِدَةُ الْمُطَارَحَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ أَقْوَى مِنْ فَائِدَةِ مُجَرَّدِ التَّكْرَارِ، لِأَنَّ فِيهَا تَكْرَارًا وَزِيَادَةً فَقَدْ قِيلَ: مُطَارَحَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ تَكْرَارِ شَهْرٍ. وَلَكِنْ إِذَا كَانَ مَعَ مُنْصِفٍ سَلِيمِ الطَّبِيعَةِ. وَإِيَّاكَ وَالْمُذَاكَرَةَ مَعَ مُتَعَنِّتٍ غَيْرِ مُسْتَقِيمِ الطَّبْعِ فَإِنَّ الطَّبِيعَةَ مُتَسَرِّيَةٌ، وَالْأَخْلَاقَ مُتَعَدِّيَةٌ، وَالْمُجَاوَرَةَ مُؤَثِّرَةٌ. وَفِي الشِّعْرِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ وَقَدْ قِيلَ:

الْعِلْمُ مِنْ شَرْطِهِ لِمَنْ خَدَمَهْ ... أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ خَدَمَهْ

وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَكُونَ مُتَأَمِّلًا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ فِي دَقَائِقِ (١) الْعُلُومِ وَيَعْتَادَ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا تُدْرَكُ الدَّقَائِقُ بِالتَّأَمُّلِ، وَلِهَذَا قِيلَ: تَأَمَّلْ تُدْرِكْ، وَلَا بُدَّ مِنَ التَّأَمُّلِ قَبْلَ الْكَلَامِ حَتَّى يَكُونَ صَوَابًا، فَإِنَّ الْكَلَامَ كَالسَّهْمِ

(١) دقائق العلوم جمع دقيقة: المسألة الصعبة.

فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْوِيمِهِ (١) بِالتَّأَمُّلِ قَبْلَ الرَّمْيِ حَتَّى يَكُونَ مُصِيبًا، قَالَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ: هَذَا أَصْلٌ كَبِيرٌ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الْفَقِيهِ الْمُنَاظِرِ بِالتَّأَمُّلِ.

وَقِيلَ: رَأْسُ الْعَقْلِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ بِالتَّثَبُّتِ وَالتَّأَمُّلِ. قَالَ الْقَائِلُ:

أُوصِيكَ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ بِخَمْسَةٍ ... إِنْ كُنْتَ لِلْمُوصِي الشَّفِيقِ مُطِيعَا

لَا تَغْفُلَنْ سَبَبَ الْكَلَامِ وَوَقْتَهُ ... وَالْكَيْفَ وَالْكَمَّ وَالْمَكَانَ جَمِيعَا (٢)

وَيَكُونُ مُسْتَفِيدًا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْخَاصِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، أَيْنَمَا وَجَدَهَا أَخَذَهَا» وَقِيلَ: خُذْ مَا صَفَا وَدَعْ مَا كَدِرَ. وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ الْإِمَامَ الْأُسْتَاذَ فَخْرَ الدِّينِ الْكَاشَانِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: كَانَتْ جَارِيَةُ أَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَمَانَةً عِنْدَ مُحَمَّدٍ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهَا مُحَمَّدٌ: هَلْ تَحْفَظِينَ فِي هَذَا

(١) تقويمه: تسديده وتصويبه نحو الهدف

(٢) الكيف: أي طريقة إلقاء الكلام؛ من خفض الصوت ورفعه، ومن هدوء ولطف أو شدة وعنف، والكم: المقدار من إيجاز أو إسهاب، حسب مقتضى الحال.

الوقت من أبي يوسف في الفقه شيئاً؟ قالت: لا، إلا أنه كان يكرر ويقول سهم الدور (١) ساقط. فحفظ ذلك منها، وكانت المسألة مشكلة على محمد رحمه الله تعالى، فارتفع إشكاله بهذه الكلمة فعلم أن الاستفادة ممكنة من كل أحد، ولهذا قال أبو يوسف رحمه الله حين قيل له: بم أدركت العلم؟ قال: ما استنكفت من الاستفادة وما بخلت بالإفادة.

قيل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بم أدركت العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول. وإنما سمي طالب العلم: ما تقول، لكثرة ما كانوا يقولون في الزمان الأول: «ما تقول في هذه المسألة؟». وإنما تفقه أبو حنيفة رحمه الله تعالى بكثرة المطارحة والمذاكرة في دكانه حين كان بزازا (٢)، وبهذا يعلم أن تحصيل العلم والفقه يجتمع مع الكسب وكان أبو حفص الكبير رحمه الله يكتسب ويكرر. فإن كان لابد لطالب العلم

(١) سهم الدور ساقط: أي السهم الدائر يسقط ولا يحسب، وهو خاص بمسألة فقهية مشهورة في الميراث

(٢) البزاز: بائع الثياب والمنسوجات.

من الكسب لنفقة عياله وغيرهم فليكتسب وليكرر وليذاكر ولا يكسل وليس لصحيح البدن والعقل عذر في ترك التعلم والتفقه فإنه لا يكون أفقر من أبي يوسف رحمه الله تعالى، ولم يمنعه ذلك من التفقه فمن كان له مال كثير فنعم المال الصالح للرجل الصالح المنصرف في طريق العلم. قيل لعالم: بم أدركت العلم؟ قال: بأب غني، لأنه كان يصطنع به (١) أهل العلم والفضل فإنه سبب زيادة العلم لأنه شكر على نعمة العقل والعلم، وهو سبب (٢) الزيادة، قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إنما أدركت العلم بالحمد والشكر فكلما فهمت شيئاً من العلوم ووقفت على فقه وحكمة قلت الحمد لله تعالى، فازداد علمي، وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يشتغل بالشكر باللسان والجنان والأركان والمال، ويرى الفهم والعلم والتوفيق من الله تعالى ويطلب الهداية من الله تعالى بالدعاء منه والتضرع إليه، فإنه تعالى هاد من

(١) يصطنع به أهل العلم: يبرهم ويحسن إليهم

(٢) وهو سبب الزيادة: أي والشكر هو سبب الزيادة لقوله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم».

استهداء، فأهل الحق وهم أهل السنة والجماعة طلبوا الحق من الله تعالى، الحق المبين الهادي العاصم، فهداهم الله تعالى وعصمهم عن الضلالة، وأهل الضلالة أعجبوا(١) برأيهم وعقلهم وطلبوا الحق من المخلوق العاجز، وهو العقل، لأن العقل لا يدرك جميع الأشياء، كالبصر لا يبصر جميع الأشياء فحجبوا، وعجزوا وضلوا وأضلوا. قال صلى الله عليه وآله وسلم «من عرف نفسه عرف ربه». فإذا عرف عجز نفسه عرف قدرة الله تعالى عز وجل.

ولا يعتمد على نفسه وعقله بل يتوكل على الله تعالى ويطلب الحق منه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه(٢) ويهديه إلى صراط مستقيم. ومن كان له مال فلا يبخل. وينبغي أن يتعوذ بالله تعالى من البخل قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أي داء أدوأ من البخل!» وكان أبو الشيخ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلواني رحمه الله تعالى فقيرا، يبيع الحلواء، وكان يعطي

(١) أعجبوا برأيهم: فرحوا به وسروا منه.

(٢) حسبه: كافيه، وهذا اقتباس من القرآن.

الفقهاء من الحلواء ويقول: ادعوا لابني! فببركة جوده واعتقاده وتضرعه نال ابنه ما نال، ويشتري بالمال الكتب. ويستكتب فيكون عونا على التعلم والتفقه، وقد كان لمحمد بن الحسن رحمه الله تعالى مال كثير، حتى كان له ثلثمائة من الوكلاء على ماله، فأنفقه كله في العلم والفقه، ولم يبق له ثوب نفيس، فرآه أبو يوسف رحمه الله تعالى في ثوب خلق، فأرسل إليه ثيابا نفيسة، فلم يقبلها وقال: عجل لكم وأجل لنا

ولعله إنما لم يقبلها وإن كان قبول الهدية سنة، لما رأى أن في ذلك مذلة لنفسه، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه»

وحكي أن الشيخ فخر الإسلام الأرسابندي رحمه الله جمع قشور البطيخ الملقاة في مكان خال فغسلها وأكلها فرآته جارية، فأخبرت بذلك مولاها، فاتخذ له دعوة ودعاه إليها، فلم يقبل لهذا(١) وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يكون ذا همة عالية لا يطمع في أموال الناس، قال رسول الله صلى الله

(١) اتخذ له دعوة: أي أعد له طعاما. لهذا: أي لئلا يذل نفسه.

عليه وسلم: «إياك والطمع فإنه فقر حاضر»(١)

ولا يبخل بما عنده من المال؛ بل ينفق على نفسه وعلى غيره؛ وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «الناس من خوف الفقر في فقر»(٢)، وكانوا في الزمان الأول يتعلمون الحرفة ثم يتعلمون العلم حتى لا يطمعوا في أموال الناس؛ وفي الحكمة: من استغنى بمال الناس افتقر، والعالم إذا كان طماعا لم تبق له حرمة العلم، ولا يقول بالحق، ولهذا كان يتعوذ صاحب الشرع عليه السلام منه ويقول: «أعوذ بالله من طمع يدني إلى طبع(٣)»، وينبغي للمؤمن ألا يرجو إلا من الله تعالى ولا يخاف إلا منه تعالى، ويظهر ذلك بمجاوزة حد الشرع وعدمها، فمن عصى الله تعالى خوفا من المخلوق فقد

---

(١) إياك والطمع الخ: يعني أن المرء إنما يطمع لخوفه من فقر متوقع والطمع فقر حاضر فهو يلتجأ إلى الفقر خوفا من الفقر كالمستجير من الرمضاء بالنار

(٢) الناس .. الخ: تنسب هذه الحكمة إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه

(٣) الطبع بكسر الطاء وفتح الباء: الدنس والعيب .

خاف غير الله تعالى، فإذا لم يعص الله تعالى لخوف المخلوق وراقب حدود الشرع، فلم يخف غير الله تعالى بل خاف الله تعالى، وكذا في جانب الرجاء(١)

وينبغي لطالب العلم أن يعد ويقدر لنفسه تقديرا في التكرار، فإنه لا يستقر قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ

وينبغي لطالب العلم أن يكرر سبق الأمس خمس مرات، وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات، والسبق الذي قبله ثلاث مرات والذي قبله اثنين، والذي قبله مرة واحدة، فهذا أدعى إلى الحفظ، وينبغي ألا يعتاد المخافتة في التكرار لأن الدرس والتكرار ينبغي أن يكونا بقوة ونشاط، ولا يجهر جهرا يجهد نفسه كيلا ينقطع عن التكرار، فخير الأمور أوسطها

حكي أن أبا يوسف رحمه الله تعالى كان يذاكر الفقه مع الفقهاء بقوة ونشاط، وكان صهره عنده يتعجب من أمره ويقول: أنا أعلم أنه جائع

---

(١) يعني إذا لم يعص الله رجاء لمخلوق فهو في الواقع لم يرج غير الله .

مُنْذُ خَمْسَةِ أَيَّامٍ ، وَمَعَ ذٰلِكَ يُنَاظِرُ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ . وَيَنْبَغِى أَلَّا يَكُونَ لِطَالِبِ الْعِلْمِ فَتْرَةٌ (١) فَإِنَّهَا آفَةٌ ، وَكَانَ أُسْتَاذُنَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ بُرْهَانُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى يَقُولُ : إِنَّمَا فُقْتُ شُرَكَائِى بِأَنِّى لَمْ تَقَعْ لِى الْفَتْرَةُ فِى التَّحْصِيلِ .

وَكَانَ يُحْكَى عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ الْأَسْبِيجَابِىِّ أَنَّهُ وَقَعَ لَهُ فِى زَمَانِ تَحْصِيلِهِ وَتَعَلُّمِهِ فَتْرَةٌ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ سَنَةً بِانْقِلَابِ الْمُلْكِ ، فَخَرَجَ مَعَ شَرِيكِهِ فِى الْمُنَاظَرَةِ إِلَى حَيْثُ يُمْكِنُهُمَا الِاسْتِمْرَارُ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَظَلَّا يَدْرُسَانِهِ مَعًا اثْنَتَىْ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَصَارَ شَرِيكُهُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ لِلشَّافِعِيِّينَ ، وَكَانَ هُوَ شَافِعِيًّا ،

وَكَانَ أُسْتَاذُنَا الشَّيْخُ الْقَاضِى الْإِمَامُ فَخْرُ الْإِسْلَامِ قَاضِيخَان يَقُولُ : يَنْبَغِى لِلْمُتَفَقِّهِ أَنْ يَحْفَظَ كِتَابًا وَاحِدًا مِنْ كُتُبِ الْفِقْهِ دَائِمًا لِيَتَيَسَّرَ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ حِفْظُ مَا يَسْمَعُ مِنَ الْفِقْهِ

(١) الفترة: العطلة ، ومن أجل هذا كان واجبا على طلاب العلم ألا يتركوا المذاكرة أثناء عطلة الصيف .

﴿فصل فى التوكل﴾

ثُمَّ لَا بُدَّ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مِنَ التَّوَكُّلِ فِى طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَلَا يَهْتَمَّ لِأَمْرِ الرِّزْقِ وَلَا يُشْغِلْ قَلْبَهُ بِذٰلِكَ . رَوَى أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللّٰهُ عَنْ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ الْحَسَنِ الزُّبَيْدِىِّ رَضِىَ اللّٰهُ عَنْهُ صَاحِبِ رَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ تَفَقَّهَ فِى دِينِ اللّٰهِ كَفَاهُ اللّٰهُ تَعَالَى هَمَّهُ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» ، فَإِنَّ مَنِ اشْتَغَلَ قَلْبُهُ بِأَمْرِ الرِّزْقِ مِنَ الْقُوتِ وَالْكِسْوَةِ ، قَلَّمَا يَتَفَرَّغُ لِتَحْصِيلِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِى الْأُمُورِ . قِيلَ :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا   وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِى (١)

قَالَ رَجُلٌ لِمَنْصُورٍ الْحَلَّاجِ : أَوْصِنِى ! فَقَالَ : هِىَ نَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا شَغَلَتْكَ . فَيَنْبَغِى لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَشْغَلَ نَفْسَهُ بِأَعْمَالِ الْخَيْرِ حَتَّى لَا تَشْتَغِلَ

(١) يسخر الشاعر ممن يخاطبه بهذا البيت ويحقره لأنه يقول له : إنك لا تستطيع الجرى فى مجال المكارم والمحامد، لأن همك محصور فى السعى وراء الطعام والكسوة ويقصد المصنف باستشهاده بهذا البيت أن يؤيد ما يقوله من أن من اشتغل قلبه بتحصيل الرزق قلما يفكر فى مكارم الأخلاق ومعالى الأمور .

بهواها، ولا يهتم العاقل لأمر الدنيا لأن الهم والحزن لا يرد المصيبة ولا ينفع بل يضر بالقلب والعقل والبدن، ويخل بأعمال الخير، ويهتم لأمر الآخرة لأنه ينفع. وأما قوله عليه السلام إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا هم المعيشة، فالمراد منه قدر هم لا يخل بأعمال الخير ولا يشغل القلب شغلا يخل بإحضار القلب في الصلاة. فإن ذلك القدر من الهم والقصد من أعمال الآخرة، ولا بد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع. ولهذا اختاروا الغربة. ولا بد من تحمل النصب والمشقة في سفر التعلم كما قال موسى صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه في سفر التعلم، ولم ينقل عنه ذلك في غيره من الأسفار: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا» ليعلم أن سفر العلم لا يخلو من التعب، لأن العلم أمر عظيم، وهو أفضل من الجهاد عند أكثر العلماء، والأجر على قدر التعب والنصب. فمن صبر على ذلك وجد لذة تفوق سائر لذات الدنيا، ولهذا كان محمد بن الحسن إذا سهر الليالي وانحلت له المشكلات يقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات؟

وينبغي لطالب العلم ألا يشتغل بشيء آخر غير العلم، ولا يعرض عن الفقه، قال محمد بن الحسن رحمه الله: إن صناعتنا هذه من المهد إلى اللحد فمن أراد أن يترك علمنا هذا ساعة فليتركه الساعة (١)

ودخل فقيه على أبي يوسف يعوده في مرض موته وهو يجود بنفسه فقال أبو يوسف له: رمي الجمار راكبا أفضل أم راجلا؟ فلم يعرف الجواب، فأجاب بنفسه. وهكذا ينبغي للفقيه أن يشتغل به في جميع أوقاته فحينئذ يجد لذة عظيمة في ذلك وقيل: رؤي محمد في المنام بعد وفاته فقيل له كيف كنت في حال النزع؟ فقال كنت متأملا في مسألة من مسائل المكاتب (٢) فلم أشعر بخروج روحي، وقيل إنه قال في آخر

(١) فليتركه الساعة: يريد أن من شرع في تعلم الفقه وهو ينوي أن يترك الاشتغال به في وقت من الأوقات كانت إرادته في تعلم الفقه ضعيفة وتصميمه مزعزعا؛ ومن شرع في عمل شيء وهو ضعيف الإرادة مزعزع التصميم لا ينجزه ولا يبلغ منه شيئا، لا سيما إذا كان عظيم الشأن جليل القدر كعلم الفقه، وإذن فينبغي له أن يترك الاشتغال به لأنه حينئذ غير منتج وعبث باطل

(٢) محمد: هو محمد بن الحسن. والمكاتب بصيغة اسم المفعول: هو العبد

عمره: شغلتني مسائل المكاتب عن الاستعداد لهذا اليوم، وإنما قال ذلك تواضعا.

﴿فصل في وقت التحصيل﴾

قيل: وقت التعلم من المهد إلى اللحد، وأفضل الأوقات شرخ الشباب (٢) ووقت السحر، وما بين العشاءين.

وينبغي لطالب العلم أن يستغرق جميع أوقاته، فإذا مل من علم يشتغل بعلم آخر، وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنه إذا مل من علم الكلام يقول: هاتوا ديوان الشعراء، وكان محمد بن الحسن لا ينام الليل وكان يضع عنده الدفاتر، وكان إذا مل من نوع ينظر في نوع آخر.

﴿فصل في الشفقة والنصيحة﴾

ينبغي أن يكون صاحب العلم مشفقا ناصحا غير حاسد فالحسد يضر

الذي تعاقد مع سيده أن يعتقه نظير مبلغ من المال مؤجل يصير حرا بعد سداده لسيده

(١) شرخ الشباب: أوله، والسحر: قبيل الصبح، والعشاءان: المغرب والعشاء.

ولا ينفع. وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين رحمه الله يقول: إن ابن المعلم يكون عالما، لأن المعلم يريد أن تكون تلاميذه علماء، فببركة اعتقاده وشفقته يكون ابنه عالما، وكان يحكي أن الصدر الأجل برهان الأئمة رحمه الله جعل وقت السبق لابنيه الصدر الشهيد حسام الدين والصدر السعيد تاج الدين رحمهما الله تعالى وقت الضحوة الكبرى، بعد جميع الأسباق، وكانا يقولان: طبيعتنا تكل وتمل في ذلك الوقت، فقال أبوهما إن الغرباء وأولاد الكبراء يأتونني من أقطار الأرض، فلا بد من أن أقدم أسباقهم. فببركة شفقته تفوق ابناه على أكثر فقهاء أهل الأرض في ذلك العصر

وينبغي ألا ينازع أحدا ولا يخاصمه لأنه يضيع أوقاته. قيل: المحسن سيجزى بإحسانه والمسيء ستكفيه مساويه. أنشدني الشيخ الإمام ركن الإسلام محمد بن أبي بكر المعروف بإمام خواهر زاده المفتي رحمه الله قال أنشدني سلطان الشريعة يوسف الهمداني رحمه الله تعالى:

وَلَا تَجْزِ إِنسَانًا عَلَى سُوءِ فِعْلِهِ … سَيَكْفِيهِ مَا فِيهِ وَمَا هُوَ فَاعِلُهْ

وَقِيلَ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْغَمَ أَنْفَ عَدُوِّهِ فَلْيُكَرِّرْ هَذَا الشِّعْرَ . وَأُنْشِدْتُ :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ رَاغِمًا … وَتَقْتُلَهُ غَمًّا وَتُحْرِقَهُ هَمًّا

فَرُمْ لِلْعُلَا وَازْدَدْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّهُ … مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا زَادَ حَاسِدَهُ غَمًّا (١)

وَعَلَيْكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِمَصَالِحِ نَفْسِكَ لَا بِقَهْرِ عَدُوِّكَ . فَإِذَا قُمْتَ بِمَصَالِحِ نَفْسِكَ تَضَمَّنَ ذَلِكَ قَهْرَ عَدُوِّكَ ، وَإِيَّاكَ وَالْمُعَادَاةَ فَإِنَّهَا تَفْضَحُكَ وَتُضَيِّعُ أَوْقَاتَكَ ، وَعَلَيْكَ بِالتَّحَمُّلِ ، لَا سِيَّمَا مِنَ السُّفَهَاءِ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ : احْتَمِلُوا مِنَ السَّفِيهِ وَاحِدَةً كَيْ تَرْبَحُوا عَشْرًا

وَأُنْشِدْتُ لِبَعْضِهِمْ :

بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ … فَلَمْ أَرَ غَيْرَ خَتَّالٍ وَقَالِي (٢)

وَلَمْ أَرَ فِي الْخُطُوبِ أَشَدَّ وَقْعًا … وَأَصْعَبَ مِنْ مُعَادَاةِ الرِّجَالِ

(١) رم للعلا : أطلب العلا ، فعل أمر من رام الشيء : طلبه .

(٢) ختال : مخادع . قالي : كاره ، من قلاه يقليه إذا كرهه .

وَذُقْتُ مَرَارَةَ الْأَشْيَاءِ طُرًّا … فَمَا شَيْءٌ أَمَرُّ مِنَ السُّؤَالِ

وَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ شَرًّا بِالْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ منشأ العداوة ولا يحلّ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ عليه الصلاة والسلام : «ظُنُّوا بالمؤمنين خيرًا» ، وإنما ينشأ ذَلِكَ مِنْ خُبْثِ النِّيَّةِ وسوء السريرة كما قال أبو الطيب :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ … وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ (١)

وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ … وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ (٢)

وَأُنْشِدْتُ لِبَعْضِهِمْ :

تَنَحَّ عَنِ الْقَبِيحِ وَلَا تَرِدْهُ … وَمَنْ أَوْلَيْتَهُ حَسَنًا فَزِدْهُ

سَتُكْفَى مِنْ عَدُوِّكَ كُلَّ كَيْدٍ … إِذَا كَادَ الْعَدُوُّ فَلَا تَكِدْهُ

وَأُنْشِدْتُ لِلشَّيْخِ الْعَمِيدِ أَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِيِّ رَحِمَهُ اللهُ :

ذُو الْعَقْلِ لَا يَسْلَمُ مِنْ جَاهِلٍ … يَسُومُهُ ظُلْمًا وَإِعْنَاتًا (٣)

(١) يعتاده : ينتابه ويرد على ذهنه من خواطر وأوهام

(٢) العداة بضم العين جمع العادي : وهو العدوّ

(٣) الإعنات : الإحراج من أعنته إذا أحرجه وأوقعه فيما لا يستطيع الخروج منه .

فَلْيَخْتَرِ السِّلْمَ عَلَى حَرْبِهِ   وَلْيَلْزَمِ الْإِنْصَاتَ إِنْ صَاتَا (١)

﴿فصل فى الاستفادة﴾

وَيَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ طَالِبُ الْعِلْمِ مُسْتَفِيدًا فِى كُلِّ وَقْتٍ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ الْفَضْلُ وَطَرِيقُ الِاسْتِفَادَةِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ فِى كُلِّ وَقْتٍ مَحْبَرَةٌ حَتَّى يَكْتُبَ مَا يَسْمَعُ مِنَ الْفَوَائِدِ، فَقَدْ قِيلَ: مَنْ حَفِظَ فَرَّ، وَمَنْ كَتَبَ شَيْئًا قَرَّ (٢) وَقِيلَ: الْعِلْمُ مَا يُؤْخَذُ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ لِأَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ أَحْسَنَ مَا يَسْمَعُونَ وَيَقُولُونَ أَحْسَنَ مَا يَحْفَظُونَ، وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ الْإِمَامَ الْأَدِيبَ الْأُسْتَاذَ زَيْنَ الْإِسْلَامِ الْمَعْرُوفَ بِالْأَدِيبِ الْمُخْتَارِ يَقُولُ: قَالَ هِلَالُ بْنُ يَسَارٍ: رَأَيْتُ النَّبِىَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَعِدْ لِى مَا قُلْتَ لَهُمْ. فَقَالَ لِى: هَلْ مَعَكَ مَحْبَرَةٌ؟ فَقُلْتُ مَا مَعِى مَحْبَرَةٌ. فَقَالَ

(١) الإنصات: الإصغاء، ويريد به السكوت، إن صاتا: أى إن أحدث صوتا وصاح، فالألف فيه للإشباع

(٢) من حفظ فرّ: أى من حفظ شيئا فرّ منه ما حفظه، ومن كتب شيئا استقر وسكن عنده ما كتبه.

يَا هِلَالُ! لَا تُفَارِقِ الْمَحْبَرَةَ فَإِنَّ الْخَيْرَ فِيهَا وَفِى أَهْلِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَوَصَّى الصَّدْرُ الشَّهِيدُ حُسَامُ الدِّينِ ابْنَهُ شَمْسَ الدِّينِ أَنْ يَحْفَظَ كُلَّ يَوْمٍ شَيْئًا يَسِيرًا مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، فَإِنَّهُ عَنْ قَرِيبٍ يَكُونُ كَثِيرًا، وَاشْتَرَى عِصَامُ بْنُ يُوسُفَ قَلَمًا بِدِينَارٍ لِيَكْتُبَ مَا سَمِعَهُ فِى الْحَالِ، فَالْعُمْرُ قَصِيرٌ، وَالْعِلْمُ كَثِيرٌ، فَيَنْبَغِى أَلَّا يُضِيعَ الْأَوْقَاتَ وَالسَّاعَاتِ، وَيَغْتَنِمَ اللَّيَالِىَ وَالْخَلَوَاتِ. عَنْ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِىِّ أَنَّهُ قَالَ: اللَّيْلُ طَوِيلٌ فَلَا تَقْصُرْهُ بِمَنَامِكَ، وَالنَّهَارُ مُضِىءٌ فَلَا تُكَدِّرْهُ بِآثَامِكَ. وَيَنْبَغِى أَنْ يَغْتَنِمَ الشُّيُوخَ وَيَسْتَفِيدَ مِنْهُمْ وَلَيْسَ كُلُّ مَا فَاتَ يُدْرَكُ، كَمَا قَالَ أُسْتَاذُنَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: وَكَمْ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ أَدْرَكْتُهُ وَمَا اسْتَخْبَرْتُهُ، وَأَقُولُ عَلَى هَذَا الْفَوْتِ مُنْشِئًا هَذَا الْبَيْتَ:

لَهْفِى عَلَى فَوْتِ التَّلَاقِى لَهْفًا   مَا كُلُّ مَا فَاتَ وَيَفْنَى يُلْفَى (١)

قَالَ عَلِىٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: إِذَا كُنْتَ فِى أَمْرٍ فَكُنْ فِيهِ (٢). وَكَفَى بِالْإِعْرَاضِ عَنْ عِلْمِ اللهِ خِزْيًا وَخَسَارًا، وَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْهُ لَيْلًا وَنَهَارًا،

(١) يلفى: يوجد   (٢) يعنى إذا كنت فى طلب أمر فتفرغ له واجتهد فى تحصيله.

ولابد لطالب العلم من تحمل المشقة والمذلة في طلب العلم، والتملق مذموم إلا في طلب العلم فإنه لابد له من التملق للأستاذ والشركاء وغيرهم للاستفادة منهم، قيل: العلم عز لا ذل فيه، ولا يدرك إلا بذل لا عز فيه، وقال القائل:

أرى لك نفساً تشتهي أن تعزها ... فلست تنال العز حتى تذلها

«فصل في الورع في حالة التعلم»

روى بعضهم حديثاً في هذا الباب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من لم يتورع في تعلمه ابتلاه الله تعالى بأحد ثلاثة أشياء: إما أن يميته في شبابه أو يوقعه في الرساتيق (١) أو يبتليه بخدمة السلطان، فمهما كان طالب العلم أورع، كان علمه أنفع، والتعلم له أيسر، وفوائده أكثر. ومن الورع الكامل أن يتحرز عن الشبع وكثرة النوم، وكثرة الكلام فيما لا ينفع، وأن يتحرز عن أكل طعام السوق إن أمكن لأن

(١) الرساتيق جمع رستاق: وهو الريف والقرى، والظاهر أن هذا الحديث موضوع.

طعام السوق أقرب للنجاسة والخيانة، وأبعد عن ذكر الله، وأقرب إلى الغفلة، ولأن أبصار الفقراء تقع عليه ولا يقدرون على الشراء منه فيتأذون بذلك فتذهب بركته.

حكي أن الشيخ الإمام الجليل محمد بن الفضل رحمه الله كان في حال تعلمه لا يأكل من طعام السوق، وكان أبوه يسكن في الرستاق ويهيئ له طعامه ويدخل إليه يوم الجمعة، فرأى في بيت ابنه خبز السوق يوماً فلم يكلمه ساخطاً عليه، فاعتذر ابنه وقال: ما اشتريته ولم أرض به، ولكن أحضره شريكي. فقال له أبوه: لو كنت تحتاط وتتورع عن مثله لم يجترئ شريكك على ذلك، وهكذا كانوا يتورعون، فلذلك وفقوا للعلم والنشر حتى بقي اسمهم إلى يوم القيامة. ووصى فقيه من زهاد الفقهاء طالب علم فقال له: عليك أن تتحرز عن الغيبة وعن مجالسة المكثار (١)، وقال: إن من يكثر الكلام يسرق عمرك، ويضيع أوقاتك، ومن الورع أن

(١) المكثار: كثير الكلام.

يجتنب أهل الفساد والمعاصي والتعطيل ويجاور الصلحاء فإن المجاورة مؤثرة لا محالة، وأن يجلس مستقبلا القبلة ويكون مستنا (١) بسنة النبي عليه السلام ويغتنم دعاء أهل الخير ويحترز عن دعاء المظلومين

حكي أن رجلين خرجا في طلب العلم للغربة، وكانا شريكين في العلم فرجعا بعد سنين إلى بلدهما وقد فقه أحدهما ولم يفقه الآخر، فتأمل فقهاء البلدة وسألوا عن حالهما وتكرارهما وجلوسهما فأخبروا أن جلوس الذي تفقه في حال التكرار، كان مستقبلا القبلة والمصر (٢) الذي حصل العلم فيه والآخر كان مستدبرا القبلة ووجهه إلى غير المصر؛ فاتفق العلماء والفقهاء أن الفقيه فقه ببركة استقبال القبلة إذ هو السنة في الجلوس، إلا عند الضرورة وببركة دعاء المسلمين فإن المصر لا يخلو عن العباد وأهل الخير، فالظاهر أن عابدا من العباد دعا له في الليل، فينبغي لطالب العلم ألا يتهاون بالآداب والسنن فإن من يتهاون بالآداب يحرم السنن ومن تهاون بالسنن حرم

(١) مستنا : متبعا لسنة النبي (٢) المصر : المدينة

الفرائض ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة

وينبغي أن يكثر الصلاة ويصلي صلاة الخاشعين فإن ذلك عون له على التحصيل والتعلم

أنشدت للشيخ الجليل الزاهد الحجاج نجم الدين عمر بن محمد النسفي:

كن للأوامر والنواهي حافظا   وعلى الصلاة مواظبا ومحافظا
واطلب علوم الشرع واجهد واستعن   بالطيبات تصر فقيها حافظا
واسأل إلهك حفظ حفظك راغبا   في فضله فالله خير حافظا

وقال أيضا رحمه الله:

أطيعوا وجدوا ولا تكسلوا   وأنتم إلى ربكم ترجعون
ولا تهجعوا فخيار الورى   قليلا من الليل ما يهجعون (١)

وينبغي أن يستصحب دفترا على كل حال ليطالعه، وقيل من لم يكن

(١) لا تهجعوا : لا تناموا، وخيار : جمع خير بتشديد الياء المكسورة والورى : الخلق، وفي الشعر اقتباس من القرآن.

لَهُ دفترٌ في كُمِّه (١) لَمْ تَثْبُتِ الحِكْمَةُ في قَلْبِه. وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ في الدَّفْتَرِ بَيَاضٌ لِيَكْتُبَ فِيهِ مَا سَمِعَهُ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ، وَيَسْتَصْحِبَ المِحْبَرَةَ لِيَكْتُبَ مَا يَسْتَمِعُ وَقَدْ ذَكَرْنَا حَدِيثَ هِلَالِ بْنِ يَسَارٍ

﴿فصل فيما يورث الحفظ﴾

وَأَقْوَى أَسْبَابِ الحِفْظِ الجِدُّ وَالمُوَاظَبَةُ وَتَقْلِيلُ الغِذَاءِ وَصَلَاةُ اللَّيْلِ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ مِنْ أَسْبَابِ الحِفْظِ، قِيلَ: لَيْسَ شَيْءٌ أَزْيَدَ لِلْحِفْظِ مِنْ قِرَاءَةِ القُرْآنِ نَظَرًا (٢). وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ نَظَرًا أَفْضَلُ. وَرَأَى شَدَّادُ بْنُ حَكِيمٍ بَعْضَ إِخْوَانِهِ في المَنَامِ بَعْدَ وَفَاتِهِ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ وَجَدْتَهُ أَنْفَعَ؟ قَالَ قِرَاءَةُ القُرْآنِ نَظَرًا، وَيَقُولُ عِنْدَ رَفْعِ الكِتَابِ: بِسْمِ اللهِ وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ العَزِيزِ عَدَدَ كُلِّ حَرْفٍ كُتِبَ وَيُكْتَبُ أَبَدَ الآبِدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ

(١) الكم: مدخل اليد ومخرجها من الثوب والمراد الجيب
(٢) نظراً أي تلاوة في المصحف.

وَيَقُولُ بَعْدَ كُلِّ مَكْتُوبَةٍ (١) آمَنْتُ بِاللهِ الوَاحِدِ الأَحَدِ الحَقِّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَكَفَرْتُ بِمَا سِوَاهُ. وَيُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ، قِيلَ:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي
فَإِنَّ الحِفْظَ فَضْلٌ مِنْ إِلَهِي ... وَفَضْلُ اللهِ لَا يُهْدَى لِعَاصِي

وَالسِّوَاكُ وَشُرْبُ العَسَلِ وَأَكْلُ الكُنْدُرِ (٢) مَعَ السُّكَّرِ، وَأَكْلُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ زَبِيبَةً حَمْرَاءَ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى الرِّيقِ يُورِثُ الحِفْظَ وَيَشْفِي مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرَاضِ وَالأَسْقَامِ. وَأَكْلُ مَا يُقَلِّلُ البَلْغَمَ وَالرُّطُوبَاتِ يَزِيدُ في الحِفْظِ وَأَمَّا مَا يُورِثُ النِّسْيَانَ فَالمَعَاصِي وَكَثْرَةُ الذُّنُوبِ وَالهُمُومُ وَالأَحْزَانُ في أُمُورِ الدُّنْيَا وَكَثْرَةُ الأَشْغَالِ وَالعَلَائِقِ، وَكُلُّ مَا يَزِيدُ في البَلْغَمِ يُورِثُ النِّسْيَانَ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَهْتَمَّ لِأَمْرِ الدُّنْيَا لِأَنَّهُ يَضُرُّ

(١) مكتوبة: أي صلاة مفروضة
(٢) الكندر بضم الكاف والدال: نوع من العلك (اللبان الذكر).

ولا ينفع وهموم الدنيا لا تخلو عن الظلمة فى القلب ، وهموم الآخرة لا تخلو عن النور فى القلب ، ويظهر أثره فى الصلاة ، وهمّ الدنيا يمنعه عن الخير وهمّ الآخرة يحمله عليه ، والاشتغال بالصلاة على الخشوع ، وتحصيل العلم ينفى الهم والحزن كما قال الشيخ الإمام نصر بن الحسن المرغينانى فى قصيدة له :

أعتن نصر بن حسن ... بكل علم يختزن
ذاك الذى ينفى الحزن ... وغيره لا يؤتمن

وقال الشيخ الإمام الأجل نجم الدين عمر بن محمد النسفى فى أم ولد له :

سلام على من تيمتنى بطرفها ... ولمعة خديها ولمحة طرفها (١)
سبتنى وأصبتنى فتاة مليحة ... تحيرت الأوهام فى كنه وصفها (٢)

---

(١) تيمتنى : شغفتنى حباً . لمعة الخدين: بريقهما ونضارتهما ، لمحة طرفها: يقال لمح إليه بفتح الميم أى اختلس النظر إليه ، والطرف : العين والمقصود هنا حسن النظر ورشاقة الالتفات

(٢) سبتنى : أسرتنى . أصبتنى : شاقتنى وأهاجت بى نشوة الصبا . الأوهام هنا بمعنى العقول . كنه وصفها : حقيقة وصفها ، وإنما تحيرت العقول فى حقيقة وصفها لأنها انبهرت بجمالها كما تنبهر العين بضوء الشمس فلا تستطيع النظر إليها.

فقلت ذرينى واعذرينى فإننى ... شغفت بتحصيل العلوم وكشفها (١)
ولى فى طلاب العلم والفضل والتقى ... غنى عن غناء الغانيات وعرفها (٢)

أما أسباب نسيان العلم فأكل الكزبرة الرطبة وأكل التفاح الحامض والنظر إلى المصلوب ، وقراءة لوح القبور ، والمرور بين قطار الجمال وإلقاء القمل الحى على الأرض ، والحجامة على نقرة القفا ، كلها تورث النسيان .

﴿فصل فيما يجلب الرزق وما يمنعه وما يزيد فى العمر وما ينقص﴾

ثم لابد لطالب العلم من القوت ومعرفة ما يزيد فيه وما يزيد فى العمر والصحة ليتفرغ طالب العلم للسعى إلى غرضه ، وفى كل ذلك صنفوا كتبا فأوردت ههنا بعضها على سبيل الاختصار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر ، فإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» .

---

(١) ذرينى : اتركينى . اعذرينى : اسمحى لى بالتخلى عن الاشتغال بحبك

(٢) طِلاب : طلب . غناء بكسر الغين : التلحين والتغنى . الغانيات : الجميلات ، والعرف : بفتح العين الرائحة الطيبة .

ثَبَتَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ ارْتِكَابَ الذَّنْبِ سَبَبُ حِرْمَانِ الرِّزْقِ ، خُصُوصًا الْكَذِبَ فَإِنَّهُ يُورِثُ الْفَقْرَ وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ خَاصٌّ ، وَكَذَا نَوْمُ الصُّبْحَةِ يَمْنَعُ الرِّزْقَ ، وَكَثْرَةُ النَّوْمِ تُورِثُ الْفَقْرَ وَفَقْدَ الْعِلْمِ أَيْضًا قَالَ الْقَائِلُ :

سُرُورُ النَّاسِ فِى لُبْسِ اللِّبَاسِ ... وَجَمْعُ الْعِلْمِ فِى تَرْكِ النُّعَاسِ

وقال بعضهم :

أَلَيْسَ مِنَ الْخُسْرَانِ أَنَّ لَيَالِيًا ... تَمُرُّ بِلَا نَفْعٍ وَتُحْسَبُ مِنْ عُمْرِى

وقال آخر :

قُمِ اللَّيْلَ يَاهَذَا لَعَلَّكَ تَرْشُدُ ... إِلَى كَمْ تَنَامُ اللَّيْلَ وَالْعُمْرُ يَنْفَدُ

وَالنَّوْمُ عُرْيَانًا ، وَالْبَوْلُ عُرْيَانًا ، وَالْأَكْلُ جُنُبًا ، وَالْأَكْلُ مُتَّكِئًا عَلَى جَنْبٍ ، وَالتَّهَاوُنُ بِسُقَاطَةِ (١) الْمَائِدَةِ ، وَحَرْقُ قِشْرِ الْبَصَلِ وَالثُّومِ ، وَكَنْسُ الْبَيْتِ بِالْمِنْدِيلِ ، وَكَنْسُ الْبَيْتِ فِى اللَّيْلِ ، وَتَرْكُ الْقُمَامَةِ (٢) فِى الْبَيْتِ ؛

(١) سقاطة الشيء : مايسقط منه عادة . المائدة : الخوان ، فسقاط المائدة هو فتات الخبز ونحوه (٢) القمامة : الكناسة .

وَالْمَشْىُ قُدَّامَ الْمَشَايِخِ وَنِدَاءُ الْأَبَوَيْنِ بِاسْمِهِمَا ، وَالْخِلَالُ بِكُلِّ خَشَبَةٍ (١) ، وَغَسْلُ الْيَدَيْنِ بِالطِّينِ وَالتُّرَابِ ، وَالْجُلُوسُ عَلَى الْعَتَبَةِ وَالِاتِّكَاءُ عَلَى أَحَدِ مِصْرَاعَيِ الْبَابِ ، وَالتَّوَضُّؤُ فِى الْمَبْرَزِ (٢) ، وَخِيَاطَةُ الثَّوْبِ عَلَى بَدَنِهِ ، وَتَجْفِيفُ الْوَجْهِ بِالثَّوْبِ ، وَتَرْكُ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ فِى الْبَيْتِ وَالتَّهَاوُنُ بِالصَّلَاةِ وَإِسْرَاعُ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَسْجِدِ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَالْإِبْكَارُ بِالذَّهَابِ إِلَى السُّوقِ . وَالْإِبْطَاءُ فِى الرُّجُوعِ مِنْهُ ، وَشِرَاءُ كُسَيْرَاتِ الْخُبْزِ مِنَ الْفُقَرَاءِ السُّؤَّالِ وَدُعَاءُ الشَّرِّ عَلَى الْوَلَدِ ، وَتَرْكُ تَخْمِيرِ (٣) الْأَوَانِى ، وَإِطْفَاءُ السِّرَاجِ بِالنَّفَسِ ، كُلُّ ذَلِكَ يُورِثُ الْفَقْرَ ، عُرِفَ ذَلِكَ بِالْآثَارِ ، وَكَذَا الْكِتَابَةُ بِالْقَلَمِ الْمَعْقُودِ (٤) ، وَالِامْتِشَاطُ بِمُشْطٍ مُنْكَسِرٍ ، وَتَرْكُ الدُّعَاءِ بِالْخَيْرِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالتَّعَمُّمُ قَاعِدًا ، وَالتَّسَرْوُلُ (٥) قَائِمًا ، وَالْبُخْلُ وَالتَّقْتِيرُ وَالْإِسْرَافُ

(١) الخلال : أى يخلل أسنانه بأى شيء يجده ، والواجب أن يتخلل بعود الخلال لأنه رفيع وليس منه ضرر (٢) المبرز : مكان التبرز ، المرحاض (٣) تخمير الأوانى : تغطيتها (٤) القلم المعقود : هو القلم الذى كسر ثم ربط بشيء ليمكن استعماله (٥) التسرول لبس السروال .

والكسل والتوانى ، والتهاون فى الأمور

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استنزلوا الرزق بالصدقة » ، والبكور مبارك يزيد فى جميع النعم خصوصا فى الرزق ، وحسن الخط من مفاتيح الرزق ، وبسط الوجه ، وطيب الكلام يزيد فى الحفظ والرزق . وعن الحسن بن على رضى الله عنهما : « كنس الفناء ، وغسل الإناء ، مجلبة الغنى » ، وأقوى الأسباب الجالبة للرزق : إقامة الصلاة بالتعظيم والخشوع وتعديل الأركان وسائر واجباتها وسننها وآدابها ، وصلاة الضحى فى ذلك معروفة مشهورة ، وقراءة سورة الواقعة خصوصا بالليل وقت النوم ، وقراءة سورة الملك والمزمل والليل إذا يغشى ، وألم نشرح لك ، وحضور المسجد قبل الأذان ، والمداومة على الطهارة ، وأداء سنة الفجر والوتر فى البيت ، وألا يتكلم بكلام الدنيا بعد الوتر ، ولا يكثر مجالسة النساء إلا عند الحاجة وألا يتكلم بكلام لغو غير مفيد لدينه ودنياه

قيل : من اشتغل بما لا يعنيه يفوته ما يعنيه (١) قال بزرجمهر : إذا رأيت الرجل يكثر الكلام فاستيقن بجنونه . وقال على كرم الله وجهه : إذا تم العقل نقص الكلام . وقال المصنف : اتفق لى هذا المعنى :

إذا تم عقل المرء قل كلامه　　وأيقن بحمق المرء إن كان مكثرا

وقال آخر :

النطق زين والسكوت سلامة　　فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما إن ندمت على سكوتى مرة　　ولقد ندمت على الكلام مرارا (٢)

ومما يزيد فى الرزق أن يقول كل يوم بعد انشقاق الفجر إلى وقت الصلاة : سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، مائة مرة ، وأن يقول : « لا إله إلا الله الملك الحق المبين » ، كل يوم صباحا ومساء ، مائة مرة ، وأن يقول بعد صلاة الفجر كل يوم : الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله ، ثلاثا وثلاثين مرة ، وبعد صلاة المغرب أيضا ، ويستغفر الله أربعين مرة بعد صلاة الفجر ، ويكثر من قول :

(١) يعنيه : يهمه　(٢) ما إن ندمت : أى ما ندمت فإن زائدة .

لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويقول يوم الجمعة سبعين مرة: اللهم أغنى بحلالك عن حرامك، واكفنى بفضلك عمن سواك، ويقول هذا الثناء كل يوم وليلة: أنت الله العزيز الحكيم، أنت الله الملك القدوس، أنت الله الحليم الكريم، أنت الله خالق الخير والشر، أنت الله خالق الجنة والنار، عالم الغيب والشهادة عالم السر وأخفى، أنت الله الكبير المتعال، أنت الله خالق كل شىء وإليه يعود كل شىء، أنت الله ديان(١) يوم الدين لم تزل ولا تزال، أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، أنت الله لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم، أنت الله لا إله إلا أنت الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، لا إله إلا أنت الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

ومما يزيد فى العمر: البر وترك الأذى، وتوقير(٢) الشيوخ، وصلة

(١) الديان: القهار (٢) توقير الشيوخ: تعظيمهم.

الرحم(١) وأن يقول حين يصبح ويمسى كل يوم ثلاث مرات: سبحان الله ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا، وزنة العرش، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ملء الميزان، ومنتهى العلم ومبلغ الرضا، وزنة العرش. وأن يحترز عن قطع الأشجار الرطبة إلا عند الضرورة وإسباغ الوضوء والصلاة بالتعظيم، والقران بين الحج والعمرة وحفظ الصحة، ولابد من أن يتعلم شيئاً من الطب ويتبرك بالآثار الواردة فى الطب التى جمعها الشيخ الإمام أبو العباس المستغفرى رضى الله عنه فى كتابه المسمى بطب النبى صلى الله عليه وسلم؛ يجده من يطلبه

والحمد لله على التمام، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل الرسل الكرام وآله وصحبه الأئمة الأعلام، على ممر الدهور وتعاقب الأيام آمين.

(١) صلة الرحم: بر الأهل والأقارب. جاء فى الجامع الصغير أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله كتب فى أم الكتاب قبل أن يخلق السموات والأرضين: إنى أنا الرحمن الرحيم، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمى، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته».

والحمد لله أولاً وآخراً